ثرثرة فوق سقف العالم 1

كتبت فى معسكر الفاروق/خوست

)الأحد 7 / 8 / 1994(

مضى على "فتح كابل" ما يقارب الثلاثين شهرا , وفي هذا المنفى الجبلي في منطقة خوست شرعت في تحقيق حلم قديم هو وضع كتاب عن أفغانستان . وليس هناك أسوأ من هذا التوقيت للكتابة عن أفغانستان . فقد استدار الزمان وتبدلت المصالح وأسفرت الوجوه عن ملامحها الأصلية بعد طول تكلف وخداع . وانتهى أحد الفصول الكالحة في "لعبة الأمم" , تلك اللعبة الشيطانية التي لا تبالي بدين أو دماء . فاز الأقوياء بالغنائم الضخمة , وانتزعوا حتى الفتات من أفواه حلفائهم , ورضى الذين باعوا دينهم بقشور تافهة من حظوظ الدنيا باعوا بها الدين كما باعوا دماء إخوانهم , وضربوا أمتهم في مقتل وصدموها في عقائدها وآمالها.

مضى الوقت الذي كانت فيه الكتابة عن أفغانستان مشروعا تجاريا ناجحا . طوال عقد الثمانينات كانت أفغانستان هي الحدث الأول على الساحة الدولية - وبالتالي الساحة الإسلامية - وقرر الغرب بزعامة أمريكا أن يلعب بالورقة الإسلامية لإحراج منافسه السوفييتي.

وأعطيت الأضواء الخضراء كي تنطلق أكبر حملة مساندة في العالم الإسلامي خلال هذا القرن لنصرة "الجهاد الأفغاني" بالأموال , بدماء الشباب , بالإعلام . وصارت أفغانستان قضية المسلمين الأولى.

وما أن أتم السوفييت انسحابهم من أفغانستان ثم سقط النظام الشيوعي في كابل بعد ذلك بثلاث سنوات تقريبا , حتى انقلبت الصورة رأسا على عقب وتبدلت المواقف والتحالفات . تحول الأعداء إلى أصدقاء , والأصدقاء إلى أعداء , وتحول المجاهد مجرما مطاردا , والمجرمون أصبحوا زعماء مسيطرين وزالت الإيديولوجيات وعم السلام تحت راية القطب الأوحد ولم يتبق للعالم أجمع إلا عدو واحد هو : "الأصولية الإسلامية. "

وجائنا نظام "دولي جديد" يدافع عن حقوق الإنسان وحرية التجارة وينشر الديموقراطية. ولا يرى غير الإسلام عدوا لدودا يهدد "طريقته المثلى" و"يظهر في الأرض الفساد. "

أعلن ذلك النظام البشع عن ميلاده على أرض جزيرة العرب عندما وطأتها أرجل الجيوش النصرانية واليهودية , في الحرب التي أسموها "حرب تحرير الكويت. "

النصر الذي تحقق على أرض أفغانستان ضد الجيش الأحمر السوفييتي أدى إلى هيمنة أمريكية مطلقة على العالم , أما على الجانب الإسلامي فقد تحول إلى كارثة إسلامية شاملة , في صورة حرب صليبية دولية ضد الإسلام كان أول من دفع ثمنها هو الشعب الأفغاني نفسه الذي أوقدوا على أرضه حربا حزبية قومية تدمر أول ما تدمر آثار الجهاد بل آثار الإسلام في تلك البلاد , التي شهدت أكبر نصر عسكري للمسلمين منذ عدة قرون.

وأول من دفع ثمن النصر الإسلامي في أفغانستان , هم هؤلاء المتطوعون العرب الذين نالوا النصيب الأوفى من الإضطهاد والملاحقة وتشويه السمعة , سواء من الغرب أو الحكومات "الإسلامية" خاصة في باكستان أو الحكومة "الإسلامية" في أفغانستان نفسها , وتلك أعظم المفارقات وأكثرها إيلاما .

ورغم تفوق تكنولوجيا السلاح في الغرب , إلا أن حملاته الإعلامية أشد فعالية وتأثيرا من حملاته العسكرية .

ومن الواضح أن المال والإعلام هما السلاحان الرئيسيان في يد اليهود للسيطرة على الغرب ومن ثم العالم بأجمعه

وقد تسلطت الآلة الإعلامية الدولية على رأس المتطوعين العرب في أفغانستان , حتى صاروا أشد "فئات المجرمين الدوليين" خطورة في نظر العامة وليس فقط الحكومات.

لقد تشتت ذلك التجمع النادر المثال ولوحق في أصقاع الأرض , ومن تبقى حتى الآن في أفغانستان - لا يتعدى عدة عشرات - يعيش على خوف وتوجس من بوادر انقلاب أفغاني ضدهم بتحريض أمريكي - إسلامي. (!)

ذلك المجهود الإعلامي الدولي , والذي ساهم في جعل أفغانستان قضية العالم الأولى لأكثر من عشر سنوات , أعمل معاول الهدم في الشعب الأفغاني نفسه وشوه صورته عالميا .

وهكذا فإن من ساهموا في صنع ذلك النصر التاريخي الفريد على أرض أفغانستان قد تحولوا جميعا إلى مجرمين منبوذين على مستوى العالم أجمع - يستوي في ذلك العرب والأفغان - بينما فازت أمريكا بصدارة العالم بلا منازع وإلى حين إشعار آخر.

في هذا الوقت الكالح والظروف الكئيبة أشرع في كتابة هذا الكتاب.

إن توقيت الكتابة يجعل هذا الكتاب مشروعا تجاريا فاشلا . لقد ذهب إلى غير رجعة ذلك الزمان الذي كان المسلمون والعالم أجمع يقرأون ويتابعون بنهم كل ما ينشر عن أفغانستان.
ورغم أنني حضرت وتابعت المشكلة منذ بداياتها المبكرة ( مايو 1979م) إلا أنني امتنعت عن إصدار الكتب رغم إلحاح بعض الزملاء ورواج السوق في ذلك الوقت . والسبب هو أن متطلبات السوق - سواء سوق النشر أو السوق السياسي - لم تكن مناسبة بالمرة كي أكتب ما أرى أنه الحقيقة.
فإما أن أقول "نعم" لكل ما يحدث على الجانب الأفغاني والحليف له أو أقول "لا" وأدخل في المعسكر الآخر جملة وتفصيلا.
وكنت أرى أن كلا المعسكرين "نعم" و "لا" لا يعبر عن مصالح المسلمين بقدر ما يعبر عن مصالح التكتل الدولي آنذاك. كانت نعم أو لا كلاهما يحقق الشهرة والمال معا ومن المؤسف أن موقف المجلات الأسلامية والكتاب الاسلاميين كان يتملق ويستثير عواطف المسلمين وهو مدخل سهل ورخيص لاكتساب المجد والغنى
ولكن عمليات خداع بهذا الشكل تنتهي دوما بكوارث مفجعة تضر أجيال المسلمين ومسيرة الاسلام حاضراومستقبلا وهذا ماحدث في أفغانستان بكل أسف إن قول الحقيقة شيء صعب في الحياة العادية , وتزداد الصعوبة إذا تعلقت الحقيقة بحالة حرب إختلطت فيها عوامل الدين والمصالح لأطراف متعارضة في كل شيء .
والبحث عن الحقيقة ومحاولة نشرها علي الملإ في تلك الأحوال إنما هي عملية انتحار مع سبق الإصرار , لان المقاومة لهذا العمل لن تأتي من أحد طرفي الصراع بل من كلاهما معا.
إن أطنانا من المطبوعات و مليارات من الجمل طارت في الأثير تتحدث عن أفغانستان لأكثر من عشر سنوات , ومع ذلك فإن حقيقة ما حدث في أفغانستان ما زالت مجهولة لدى معظم الناس , وما زالت عملية البحث عن الحقيقة ونشرها عملية صعبة للغاية وتكاد تكون مستحيلة , لأن بعض أطراف المأساة - أو معظمهم - ما زالوا نشطين في مسرح الأحداث ومنغمسين في تصنيع مزيد من المآسي الدامية للمسلمين.
وزاد في الأمر صعوبة تلك الهيمنة الأحادية للولايات المتحدة على شئون العالم أجمع . فاختفي ذلك الهامش الضيق الذي كانت تطل منه الحقيقة من خلال تناقض المصالح بين المتنافسين في الشرق والغرب . تلك الهيمنة الأحادية أوضحت بشكل جلي تلك السيطرة المدمرة للقوى اليهودية على العالم أجمع من خلال سيطرتهم المالية الكاسحة ونفادهم إلى عظام الغرب الإقتصادية والسياسية والفكرية .
علينا في ظل هذه الظروف أن نبحث - نحن المسلمون - عن الحقائق ونعمل على نشرها والإستفادة منها - الآن ومستقبلا - في أحد قضايانا الكبيرة في هذا القرن , قضية أفغانستان.
ولا أزعم أن هذا الكتاب سوف يحتوي بين دفتيه تلك الحقيقة المنشودة , فذلك مستحيل لأسباب كثيرة . ولكن ما أطمح إليه هو أن يكون هذا الكتاب مجرد شهادة متجردة من جانب أحد شهود تلك المرحلة الخطيرة.
وبالطبع سوف يحمل هذا الكتاب تلك السلبيات الطبيعية لمثل ذلك العمل مثل محدودية الفترة الزمنية ومحدودية الإحتكاك ومحدودية المعلومات ومحدودية الفهم والتقييم ... الخ.
فلا يمكن إذن الزعم بأن الحقيقة قد جاءت مؤخرا بين دفتي كتاب . وعلى أفضل الظنون فإن هذا الكتاب سوف ينير جانبا من الحقيقة قد يساعد يوما على اكتشافها . كما أنه سوف يلقي بعض الضوء على شريحه من هؤلاء البشر الذين انخرطوا في تلك التجربة وكابدوها . وإذا قدر لهذا الكتاب أن يرى النور - وهذا موضع شك حتى الآن - فسوف تكون هناك أجيال جديدة قد تولت زمام العمل من أجل الإسلام . أجيال سوف تكون أفضل في كل شيء : سلوكا وفهما وعملا . وهكذا تبشر الدلائل التي نراها الآن . وللتجربة الأفغانية دورها في صيانة هؤلاء الشباب الذين ما زالوا في بطن الغيب . فالحاضر هو تربة المستقبل التي ينموا عليها ويزدهر . والتجربة الأفغانية رغم كل شيء قد أثرت إلى درجة كبيرة - وربما أكبر من أي تجربة تعيها ذاكرة جيلنا الحالي - في صياغة الفكر والعمل الإسلامي الذي يتوق إلى تحقيق الإسلام على أرض الواقع , ومهما كانت التبعات.
تبقى مسألة أخرى هي مسألة الرياء والسمعة وهو رادع معنوي لكثير من المسلمين عن الكتابة عن أحداث عاصروها وشاركوا فيها , ويزداد هذا الرادع إذا اضطر الشاهد - أي الكاتب - أن يستخدم صيغة المتكلم , وهو أسلوب غير محبب , ولكنه قد يصبح ضروريا في مثل هذه الحالات خاصة إذا كان سيجنب القارئ الكثير من الغموض ويجعل الصورة لديه أكثر وضوحا.
وفي حالتنا هذه أرجو أن لا يكون للرياء نصيب ولهذا أيضا أسباب : فالكتابة عن الإسلام عامة والجهاد بشكل خاص لم يعد بالموضوع المقبول في الدوائر الدولية والسلطات الإسلامية (!!) , إلا إذا كان الموضوع يتملق تلك

الدوائر ولا يجرح مشاعرها , أي أن الكاتب عليه أن يكذب على الله ورسوله أو أن يلبس الحق بالباطل ويكتم الحق عن علم . إذن فمثل هذ الكتاب لن يرضي القوي اليهودية التي تحكم العالم الآن - بما فيه بلاد المسلمين - كما أنه لن يرضي قوى وتجمعات إسلامية نافذة , ارتكبت أخطاء فادحة في تعاملها مع القضية الإسلامية في أفغانستان , ووظفت مساحتها في العمل الإسلامي العام لصالح قوى الغرب وليس لمصالح الأمة الأسلامية , وكانت صفقة خاسرة لهم وللمسلمين.

إذن هذا الكتاب لن يجد أصدقاء لا على المستوى الدولي ولا على مستوى القوى الإسلامية المؤثرة على ساحة العمل الإسلامي حاليا ... فالمتوقع والحال هكذا , أن ترقد تلك الأوراق في قاع أحد الأدراج حتى تأكلها الفئران والعتة أو أن يجعل الله لها فرجا وتتغير الأحوال السائدة ويقضي الله لها من يتولي طباعتها ونشرها , ربما كمخطوطة تاريخية وأثر يحمل عبق الماضي . ويومها سوف يكون كاتب هذه المخطوطة قد أفضى إلى ربه حيث لا ينفعه رياء ولا سمعة.

إنها صرخة في واد قد تصل في وقت ما إلى أذن ما ... فإن أفادت فذلك من فضل الله , وإذا لم تفد فذلك قدر الله , ويبقى كونها شهادة من شخص ما , كان هناك في ذلك المكان الذي شهد واحدا من أضخم أحداث العصر , وواحدة من أكبر وأهم معارك المسلمين خلال عشرات - بل مئات - من السنين أي منذ توقفت الحروب الجهادية في حياة أمتنا , وتهاوت دولة الإسلام ورابطة الخلافة .

مصطفى حامد

((((

## الفصل الأول
## بين أفغانستان وفلسطين

لماذا ذهبت إلى أفغانستان ؟ . سمعت هذا السؤال مرات عديدة , من أصدقاء وزملاء ومعارف ومن أناس لا أعرفهم . كما سمعته أثناء عودتي من رحلتي الأولى لأفغانستان عندما سألني شاب أفغاني غاضبا : ؛ أنت ليش يجي هون ؟ ليش ما تسوي جهاد في فلسطين ؟ « . قالها هكذا بعربية ركيكة شائعة في منطقة الخليج.

كان السؤال مفاجئا ومثيرا لكثير من الأوجاع . مرافقنا الأفغاني قدم اعتذاره لي ولزميلي واتهم السائل بأنه "منافق. "

وفي بداية عام 1983م كتبت كتابا صغيرا عن أفغانستان كانت تغلب عليه الرومانيسية وسألت صديقا له باع طويل في الكتابة أن يقرأه ويكتب لي ملاحظاته . وكانت أول ملاحظة في القائمة هي : "لماذا ذهبت إلى هناك؟" . ومن حسن حظ القراء أنني لم أنشر ذلك الكتاب ومازال راقدا في أحد الأدراج بعد أن فقد بعض أجزائه.

كنت مازلت شابا في الرابعة والثلاثين من عمري عندما ذهبت لأول مرة إلى أفغانستان وكنت في العام السابق لذلك قد تطوعت للقتال ضد اليهود في جنوب لبنان في صفوف منظمة التحرير الفلسطينية "فتح" إثر الإجتياح الإسرائيلي للجنوب عام 1978م.

كانت لي لحية صغيرة وأنيقة في ذلك الوقت وسبق لي الحج مرتين لذا فقد كانت إجابتي بأنني مسافر من أجل "الجهاد في سبيل الله" مقنعة تماما للبعض بل ومصدر سعادة لهم . أما الأكثر "حيطة وذكاء" فقد وضعوا افتراضات عديدة منها أنني قد تزوجت بامرأة أخرى في أفغانستان أو باكستان . وقال آخرون : بل لقد ناء بمسؤولياته العائلية وكثرة أبنائه فهو يريد التخلص من حياته.

وقال لي أحد "بلدياتي" : إنهم يقولون عنك أنك تسافر إلى تلك البلاد بهدف الإتجار في المخدرات (!!) . أما هؤلاء الأكثر ثقافة فقد وضعوا نظرية أكثر حداثة تقول : القضية الأفغانية ما هي إلا لعبة أمريكية ضد المعسكر الإشتراكي والأفغان عملاء لأمريكا والإمبريالية , أما هو فليس إلا مثلهم.

عندما بدأ تواجد المجاهدين العرب في أفغانستان يصبح ملحوظا , كنت قد بدأت رحلتي في سن الأربعين وما بعده . كانوا في أغلبهم في العشرينات من العمر ويندر فيهم من تخطى الثلاثين . وقد أثر ذلك في علاقتي بهؤلاء الذين مثلوا ظاهرة فريدة في ذلك العصر , وكان فارق السن إضافة لعوامل كثيرة - سيأتي ذكرها - سببا في كون العلاقة لم تكن مريحة أو مثمرة.

في البداية كنت أنظر حولي وأشعر بغصة ألا أجد أحدا من أبناء جيلي . لذلك شعرت بالفرح عندما قابلت الشيخ عبد الله عزام لأول مرة في بيشاور في نوفمبر 1984م . كان من نفس الجيل وإن كان أكبر مني بثلاث سنوات , يومها شعرت أنني لست وحيدا.

ولكن لسوء الحظ , فإن اختلاف رؤيتنا للأحداث ومواقفنا منها أدى لأن تكون علاقتي معه فاترة ومتحفظة وإن سادها الإحترام المتبادل.

هناك خيط مشترك يربط أبناء الجيل الواحد مع بعضهم البعض بسبب معايشتهم لنفس الظروف والأحداث . لهذا كان هناك قدرا مشتركا - لا بأس به - بيني وبين الشيخ عبد الله عزام تجاه قضية أفغانستان والموقف منها بشكل عام.

وكان أكبر نقاط التنافر بين مواقفنا هو تقييم قادة الأحزاب الأفغانية ودورهم في القضية . فبينما مضى هو إلى أقصى حد في تمجيدهم ( خاصة الثلاثي سياف - حكمتيار - رباني ) ذهبت أنا إلى الطرف المناقض تماما.

لقد كنت متفقا مع الشيخ عبد الله على أن الجهاد هو الوسيلة الوحيدة أمام الأمة الإسلامية للدفاع عن دينها ومصالحها في مواجهة القوى المتكالبة عليها , وأن المعركة الرئيسية للمسلمين هي معركتهم مع اليهود والصليبية المتحالفة معهم . وأن أفغانستان هي فرصة نادرة لمسيرة الجهاد التي ينبغي أن تستمر وتتصاعد وأن تكون أفغانستان هي المدرسة الكبرى للممارسة العملية على نطاق الأمة.

إن جيلنا كان وافر الحظ مع الحروب . فقد جاء جيلنا إلى الحياة مع نهاية الحرب العالمية الثانية . وقبل أن يدرك ما حوله نشبت حرب 1948م بين اليهود والعرب وضاعت معظم فلسطين وظهرت إسرائيل كأبشع حقيقة سياسية في حياة العرب المعاصرين . تلتها سلسلة من الإنقلابات في العالم العربي كرست عملية الإنتقال من التبعية للإستعمار البريطاني والفرنسي إلى التبعية الجديدة للإمبريالية الأمريكية , ثم جاءت حرب 1956م بين مصر من جانب وإسرائيل مدعومة بفرنسا وبريطانيا من جانب آخر . وفي عام 1967 كانت أبشع الهزائم العربية في التاريخ الحديث أمام إسرائيل وضاعت بقية فلسطين مع مساحات شاسعة من الأراضي المصرية والسورية . وفي عام 1973م كانت حرب "التحريك" بين مصر وسورية من جانب وإسرائيل من الجانب الآخر وفعلا تحركت المنطقة نحو مسيرة طويلة للتسوية السلمية مع إسرائيل لتنتهي بها إلى استسلام كامل للهيمنة الإسرائيلية على كامل المنطقة العربية "تقريبا" مع اعتراف بالقطب الأمريكي المسيطر الأوحد على الساحة الدولية.

وفي أبريل 1978م كان الإنقلاب الشيوعي في أفغانستان تلاه الغزو السوفييتي في ديسمبر 1979م , وبدأ نجم الجهاد في أفغانستان يبزغ على استحياء حتى تلقفته الدوامة الدولية ولمدة عشر سنوات كان الجهاد والمجاهدون في أفغانستان هم حديث الساعة عالميا .

بدل لنا أن الفرصة سانحة وأن الراية التي رفعت في جبال أفغانستان ينبغي أن تظل خفاقة حتى النصر وأن تواصل المسير في الآفاق حتى تعود للمسلمين دولتهم وعزتهم.

هكذا كنا نحلم ... وفي هذا الإتجاه حاولنا أن نعمل ... أما النتائج فكانت شيئا آخرا.

كانت هناك عدة فروق بين الحرب في أفغانستان والحروب التي شهدتها المنطقة العربية مع إسرائيل . وهي فروق أدهشت الشعوب العربية وجعلت الإسلاميين فيها ينجذبون إليها.

- لقد قام الأفغان ضد حكومة شيوعية مدعومة بقوة عظمى ومع ذلك لم يستسلموا بل تصاعدت مقاومتهم.
- رفع الأفغان شعار الجهاد فأجج ذلك مقاومتهم وأكسبهم تعاطف المسلمين في كل مكان.

ولما كان جيلنا قد أدرك متأخرا أن الحروب العربية الإسرائيلية إنما هي حروب من جانب واحد تواطأت فيها الحكومات العربية - التي لا تتولى السلطة إلا بموافقة ومساعدة القوى الغربية - وذلك لفرض الهزيمة على الشعوب العربية وتكريس سيادة إسرائيل على المنطقة . لهذا صار لزاما على هذه الحكومات أيضا أن تعمل ضد الإسلام نفسه , وتعمل على إضعافه أواقتلاعه من المنطقة حتى يسهل استقرار وسيطرة اليهود عليها.

رغم صغر حجم إسرائيل وقلة سكانها من اليهود إلا أنها استطاعت أن تفرض إرادتها على دول المنطقة , وجيوشنا كانت سريعا ما تنهزم وتفر أمامهم في ميادين القتال وإذا قاتلت فلأيام معدودة يبدأ بعدها سيل من الإتفاقات وعهود السلام . والشعوب ضعفت عقيدتها وانهارت معنوياتها وأصبحت تقبل بأي شيء في مقابل استمرارها في حياتها المهينة.

ثم جاءت أفغانستان لتقدم صورة مناقضة تماما لتلك الصورة العربية الكئيبة . في أفغانستان شعب خشن ذو عزيمة وتصميم يقاتل لأجل الإسلام , ويتحمل أهوالا تعجز الجبال عن تحملها , والأعجب أنه يحقق انتصارات ضد أقوى جيوش الأرض , الجيش السوفييتي.

إنه الصورة المناقضة لحالنا , والحلم الذي يراود المسلمين يتحقق أخيرا . لقد تخيلنا أن الأمل بدأ يتحقق , ومن أفغانستان سوف تخرج جيوش الفتح الإسلامي.

لهذا جئت إلى أفغانستان , وجاء غيري مئات وآلاف من الشباب , لتبدأ ملحمة العرب في أفغانستان , كواحدة من أغنى تجاربنا الإسلامية الحديثة.

منذ تسلطت دول الغرب الإستعمارية على بلاد المسلمين , وهدفها الأول إضعاف الإسلام في نفوس الناس مع استبعاده من الحياة العامة وعزله في المساجد والمدارس الدينية التي تسيطر عليها الحكومات الموالية للغرب . وكانت تلك السياسة على أشدها في البلاد العربية لكونها مهد الإسلام ومحضنه الطبيعي وقبلة المسلمين من غير العرب.

وبعد استبدال الإستعمار البريطاني والفرنسي , بالإمبريالية الأمريكية وحصول الدول العربية الممزقة على استقلالها الشكلي , استمرت السياسة نفسها ضد الإسلام وبشكل أشد ضراوة على أيدي الحكومات الوطنية , التي هي بالمعيار والمصطلح الإسلامي حكومات مرتدة عن الإسلام.

لقد تراجعت الروح الإسلامية في الشعوب وساد الجهل بتعاليم الإسلام . وسيطرت الدولة على التعليم الديني والعلماء فانعزلت المؤسسة الدينية الرسمية عن المسلمين وفقدت ثقتهم . ومن ذلك الوقت بدأت الحركة الدينية الشعبية , التي كانت بدايتها الكبرى مع الشيخ حسن البنا مؤسس حركة الإخوان المسلمين , التي ما زالت منذ تأسيسها تمثل التيار الأكبر حجما والأكثر تنظيما بين تيارات التحرك الإسلامي الشعبي.

رغما عن أي سلبيات شابت التحرك الإسلامي الشعبي فإنه قام بدور تاريخي هام في الدفاع عن الإسلام والحفاظ على شعائره وتعاليمه والدفاع عنه ضد مختلف الحملات المرتدة , سواء الحملات الفكرية والثقافية أو الحملات البوليسية القمعية . وقد دفعت تلك الحركات ثمنا غاليا من دماء وأرواح أتباعها وكوادرها.

من بين فرائض الإسلام كان الجهاد الأوفر حظا , فقد ركز الغرب وحكومات الردة على استئصاله من حياة المسلمين بل ومن قاموسهم الديني.

حتى أن الدول الإستعمارية الغربية قد ساعدت على إنشاء فرق إسلامية مهمتها مقاومة فكرة الجهاد والعمل على إبطالها عمليا ونظريا.

ولما جاء الشيخ حسن البنا - رحمه الله - كي يضع في شعار جماعته تلك العبارة الشهيرة : " ... الجهاد سبيلنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا" , كان ذلك يعني إعلان الحرب على الإحتلال البريطاني والنظام الملكي في مصر . وفي ظني أن قرار اغتياله قد أصدره الإنجليز من يوم أن رفعت الجماعة - الإخوان - ذلك الشعار.

وعندما نشبت حرب فلسطين عام 1948م كان الجهاد مازال حيا في الذاكرة الشعبية للعرب , وتبنته جزئيا وسائل الإعلام العربية في ذلك الوقت من خلال الأغاني والأناشيد الحماسية.

وكما حدث في حرب أفغانستان بعد ذلك بأكثر من ثلاثين عاما بادر الغرب وحكومات الردة في وضع مخطط لإجهاض العمل الجهادي الشعبي , وتسخير مجهوده لصالح الكفار أنفسهم ثم البطش والتنكيل بالمجاهدين.

وضع الإنجليز مخطط حرب فلسطين , بهدف إخراج الهزيمة بشكل مسرحي - تشارك فيه حكومات الردة عن عمد - بهدف تحطيم معنويات الشعوب ودفعها تدريجيا للإستسلام لليهودية , وأعطى هذا المخطط ثمارا يانعة في السبعينات وحتى الإستسلام الكامل للعرب في التسعينات من هذا القرن.

لقد كانت حرب فلسطين عام 1948م تجربة غنية للعمل الإسلامي مليئة بالدروس والعبر . ولكن للأسف عندما خاض المسلمون في التجربة الأفغانية لم يستفيدوا من تلك الدروس وكرروا الأخطاء - بل زادوا عليها - ثم تعرضوا لنفس النكسات والضربات الأليمة وبالطريقة نفسها تقريبا مع تحويرات تتناسب والتغيرات في الزمان والمكان والملابسات المحيطة.

لقد كانت بريطانيا هي القوة المهيمنة على كل الحكومات العربية والمحتلة لأكثر الدول العربية المحيطة بفلسطين , ونفذت بريطانيا مخططها في فلسطين وفي الحرب الفلسطينية عام 1948م عبر الحكومات المرتدة في المنطقة العربية التي دخلت الحرب بسبعة جيوش وفي الحالة الأفغانية كانت أمريكا منذ عام 1981م هي القوة المهيمنة على الحرب الأفغانية , وتحركت مع مجموعة من الحكومات المرتدة خاصة الحكومة السعودية والباكستانية وكانت أدواتها على الساحة الأفغانية هي الأحزاب الأفغانية المسماة "بالمنظمات الجهادية" وعددها سبعة منظمات , وهو نفس عدد الجيوش التي دخلت حرب فلسطين تحت إمرة الجنرال "جلوب باشا" الإنجليزي , وقد تحكمت المخابرات الأمريكية إلى درجة كبيرة بالعمل القتالي في أفغانستان بواسطة جهاز المخابرات الباكستاني ( ISI ) والذي أنشأه ضياء الحق عام 1979م بهدف التدخل في أفغانستان.

في الحالتين دخلنا الحرب بسبعة جيوش إسلامية يقودها جنرالات كفره أو مرتدين, ومع هذا لم تستطيع الولايات المتحده أن تحكم سيطرتها على جهاد الشعب الأفغانى بنفس القدر الذى أحكمت به بريطانيا سيطرتها على الجيوش العربيه فى فلسطين, فالجيوش العربيه الضعيفه التجهيز والمعنويات, والشعوب العربيه المقهوره بحكومات مستبده والبعيده عن دينها, كان من السهل, ومازال, إيقاع الهزيمه بها وإرغامها على تجرعها حتى الثماله, ثم القبول بالأمر الواقع.. أما الشعب الأفغانى ذو الطبيعه القتاليه, والتركيب القبلى, والمتمرس على القتال والمتعصب لدينه , فكان التحكم به صعبا , لذلك استطاعت القوى الإسلامية المخلصة في أفغانستان رغم التعب الذي أصابها , أن توقع الهزيمة بالسوفييت ثم أسقطت النظام الشيوعي في كابل , كل ذلك رغما عن كل المحاولات الأمريكية للخروج بنتيجة (لا غالب ولا مغلوب) ثم تشكيل حكومة علمانية تقود البلاد تحت نفوذ أمريكي سوفيتي مشترك.

كانت حرب فلسطين في حقيقتها هي "دعوة إلى وليمة الهزيمة" . بريطانيا هي صاحبة الدعوة والجيوش العربية السبعة هم ضيوف الشرف . فما هو دور المتطوعين المسلمين ? ... ولماذا سمحت لهم بريطانيا بالمشاركة ?

أولا : سمحت بريطانيا للإخوان المسلمين بالمشاركة العسكرية في فلسطين حتى يصبحوا شركاء في الهزيمة المنتظرة فلا يكون لهم فضل على الأنظمة ولا يزايدوا عليها باسم الإسلام.

ثانيا : استطلاع عمق الشعور الجهادي داخل الجماعة وفي صفوف الشعوب العربية.

ثالثا : كشف العناصر الناشطة إسلاميا والفاعلة جهاديا وتقديمها إلى صفوف القتال للقضاء عليها.

وقد كان المجاهدون من صفوف الإخوان يكلفون بأخطر المهام القتالية في ميدان القتال . ويعلم الإنجليز بخبرتهم العسكرية أن الإخوان كقوات فدائية سوف يصابون بأعلى الخسائر في الأرواح . وكان هذا هو المطلوب.

رابعا : بعد إشراكهم في الهزيمة وتقديمهم قرابينا بشرية لنيران اليهود , تتكفل أجهزة الأمن المصرية - وغيرها - بتصفية الباقين في المعتقلات وعلى أعواد المشانق.

وفور انتهاء الحرب صدرت الأوامر للجيش المصري بنزع سلاح كتائب الإخوان المسلمين , فقام ضباط الجيش المصري بنزع سلاح زملائهم من وحدات الفدائيين المسلمين , الذين قاتلوا إلى جانبهم وأنقذوهم من عشرات المآزق القاتلة ومن الهلاك في حصار الفالوجا وغيرها . ثم وضع ضباط الجيش المصري زملائهم من كتائب الإخوان المسلمين في سجون الوحدات العسكرية حتى استلمتهم السلطات المصرية ووضعتهم في معتقلات نائية بدون أن تسمح لهم بالعودة إلى الوطن لزيارة عائلاتهم . أي من الجبهة إلى المعتقلات...

والغريب أن هؤلاء المتطوعين في فلسطين قد استمر اعتقالهم واضطهادهم حتى جاء الإنقلاب العسكري عام 1952 ( ثورة يوليو ) , فلفقت لهم القضايا وتم إعدام عدد منهم واعتقال آخرين تحت ظروف التعذيب الوحشي حتى قتلوا ولم ينج من هؤلاء المتطوعين إلا أفراد قلائل فروا من مصر قبل اعتقالات عام 1954 . ولم يتمكنوا من العودة إليها مرة أخرى رغم مرور عشرات السنين على حرب فلسطين.

أما عناصر الإخوان الذين لم يشاركوا في القتال فقد سمح لهم السادات في بداية عهده بالعودة إلى مصر في إطار معين للحصول على لقب ( الرئيس المؤمن ) , وكان ذلك نصف الطريق المرسوم له من الغرب , أما النصف الآخر فقد أنجزه بعد حرب أكتوبر 1973 م بحصوله على لقب "بطل الحرب والسلام" . عندئذ صار الطريق مفتوحا أمامه لتوقيع اتفاقية الإستسلام مع إسرائيل بصفته الكاملة وهي "الزعيم المؤمن بطل الحرب والسلام" .

أي أنه في حالتي الحرب ( 1948م) والسلام ( 1977 م) كان الإسلاميون عرضة للإستغلال من جانب الغرب وحكومات المرتدين في تنفيذ مخططاتهم ضد الإسلام في المنطقة العربية.

هذا ما حدث مع الإسلاميين في قضية فلسطين فماذا حدث معهم في قضية أفغانستان؟
إن التشابه كان مدهشا بين الحالتين.
لقد بدأ تسرب المجاهدين العرب إلى أفغانستان , وكان هناك في البداية تضييقا على حركتهم نحو الحدود الأفغانية , وكان حكم الجنرال ضياء الحق في باكستان لا يرغب في تصعيد إجراءات منع العرب من النفاذ إلى أفغانستان من أجل الجهاد وذلك لأسباب داخلية كثيرة , ولتحالفه في ذلك الوقت مع التيار الإسلامي في باكستان لمواجهة المد الشيوعي العلماني المتحالف مع الهند وموسكو من أجل إسقاط حكم ضياء الحق.
وقررت أمريكا مع زيادة تورطها في القضية الأفغانية أن تلعب "بالورقة الإسلامية" في مواجهة موسكو لإحراجها في كل العالم الإسلامي . وللإستفادة من دماء المسلمين المبذولة بسخاء في ميادين الجهاد وأموالهم المتدفقة لمساعدة المجاهدين كي تخوض أمريكا حلقة في إطار الحرب الباردة لا تكلفها شيئا تقريبا.
وقررت أمريكا أن تقوم الخزينة السعودية بتمويل الحرب في أفغانستان , أما الدماء في المعارك فسوف يتسابق المجاهدون العرب والأفغان لبذلها في سبيل الله . أما أمريكا فدورها التوجيه والتخطيط ثم جني الثمار - وحدها فقط - وإن استدعى ذلك قتل شركائها ؛ قتلوا ضياء الحق ثم تميم العدناني ثم عبد الله عزام ثم دمروا التواجد الجهادي العربي في باكستان وأفغانستان بحملات بوليسية وإعلامية مركزة. »
والإشتراطات الأربعة التي وضعتها بريطانيا لمشاركة المجاهدين العرب في حرب فلسطين كانت هي نفسها الإشتراطات التي وضعتها أمريكا لاشتراك المجاهدين العرب في أفغانستان . ولنستعرضها مرة أخرى في الحالة الأفغانية.
أولا : تصورت أمريكا أن دعوة المتطوعين العرب للجهاد في أفغانستان هي "دعوة على مائدة الهزيمة" . لأن خيوط القيادة والتوجيه تنتهي إلى اليد الأمريكية والقرار الأمريكي , ولأن اللاعبين الرئيسيين هم من الأتباع المخلصين إما لأمريكا مباشرة ( باكستان / السعودية / ثم مصر وإسرائيل ) أو أتباع مخلصون لأتباع آخرين مخلصين ( مثل قادة المنظمات الجهادية الأفغانية وكلهم تابع لهيئة الإستخبارات الباكستانية ISI ويتلقى أوامره اليومية ومساعداته من أموال وأسلحة من أيدي موظفي الحكومة الباكستانية. (
ثانيا : أرادت أمريكا أن تسبر غور التيار الإسلامي في المنطقة العربية بعد سنوات من الإنفراج النسبي في العلاقة معه , وأن تكتشف عمق المشاعر الجهادية والناشطين جهاديا باعتبارهم أول خصومهم في المنطقة وأكبر المخاطر على إسرائيل ومشروعها الشامل للسيطرة على المنطقة.
ثالثا : أن القتال في أفغانستان لن يكون نزهة على أية حال , والمتطوعون العرب المملوءون حماسا وغير المدربين وغير المنظمين لن يكونوا سوى فريسة سهلة للنيران السوفييتية . وهذه أرخص السبل وأسرعها للقضاء عليهم قضاء اختياريا لا يحرج أحدا من الحكومات . وعلى هذا الأساس سهلت الحكومات العربية خروج شبابها للجهاد في أفغانستان , وقدم بعضهم تسهيلات كبيرة.
رابعا : إذا استطاع أحد من المتطوعين العرب أن ينجو من نيران الجيش الأحمر , فإن جيوش المخابرات في أنظمة الردة سوف تتولى أمره كالمعتاد.
ويمكن تلخيص تلك الخطوات الأربعة بأربعة عناوين هي : استدراج - استطلاع - قتل - تصفية.
خطوات أربعة تكررت كما هي ضد المجاهدين العرب في فلسطين ثم في أفغانستان على أيدي نفس الفئات : اليهود والصليبية والمرتدون .
فكم من المرات سوف نلدغ من نفس الجحر.؟
دعنا نتأمل في بند "التصفية" لنرى مكوناته وكيفية تنفيذه في الحالتين : حرب فلسطين والحرب الأفغانية.
أ - لقد شملت التصفية في الحالة الفلسطينية في أول لحظة المقاتلين الإسلاميين , وفور أن انتهت الحرب ولم يسمح لهم أن تطأ أقدامهم أرض الكنانة , فقد اعتقلوا داخل الوحدات العسكرية العاملين معها.
ب - وبعد فاصل زمني قصير أصدرت الحكومة قرارا بحل جماعة الإخوان المسلمين وإغلاق مراكزها واعتقال جميع المنتمين إليها.
ج- - ثم كانت الخطوة الأخيرة هي اغتيال قائد التنظيم , الشيخ حسن البنا , في أحد شوارع القاهرة أمام المقر الرئيسي للإخوان . وقد تمت الخطوات الثلاثة في أقل من عام.
ومن المعلوم أن مشاورات مكثفة حول برنامج التصفية قد جرب بين الدول الثلاث : الولايات المتحدة , بريطانيا , فرنسا .

وبالطبع فإن إسرائيل والقوى اليهودية العالمية كانت هي الموجه الرئيسي لتلك الإجتماعات.
إذن فأهداف التصفية ثلاث عناصر :
أ - المقاتلين ب - التنظيم ج- - القائد
والقائمون على التصفية ثلاث فئات هم:
أ - اليهود ( للتوجيه والتحريض ) ب - الصليبيون ( للتخطيط) ج- - المرتدون ( للتنفيذ والتمويل )
وقد يتعجب البعض من كون "التمويل" هو من نصيب المرتدين وليس الصليبيين أو اليهود , ولكن هذا ما حدث في الحالتين الفلسطينية والأفغانية . فميزانية الدولة المصرية تحملت تكاليف عملية تصفية الإخوان المسلمين عام 1948م ( وما تلى ذلك من حملات ) أما في الحالة الأفغانية فإن ميزانية الدولة السعودية قد تكلفت بسداد جميع الفواتير التي أمرت الولايات المتحدة الحكومة السعودية بسدادها , ليس فقط أثناء فترة الحرب بل تكاليف عمليات تصفية التواجد العربي الجهادي في أفغانستان وباكستان.
ولننظر إلى برنامج تصفية المجاهدين العرب في أفغانستان لنرى أوجه التشابه والإختلاف بين الحالتين.
أ - بدأت عملية التصفية بقتل الشيخ عبد الله عزام في بيشاور ( نوفمبر 1989م ) أي بعد انسحاب الروس من أفغانستان بتسعة أشهر فقط . ( كان ضياء الحق قد اغتيل في أغسطس من نفس العام , كما اغتيل مساعد الشيخ عبد الله عزام وهو "تميم العدناني" أثناء علاجه في أمريكا , قتلوه بالسم وظهرت الوفاة طبيعية. )
ب - أما تصفية المقاتلين والتجمع العربي في باكستان فكان من المفترض أن يعقب عملية اغتيال الشيخ عبد الله عزام مباشرة في صورة حملة اعتقال شاملة . ولكن حساسية وتعقيد الوضع السياسي في باكستان وأفغانستان والحرب الدائرة في أفغانستان جعلا العملية مستحيلة فأحجمت عنها حكومة باكستان , ولم تتح الفرصة إلا بعد انتهاء الحرب الأفغانية فبدأت حملة شاملة ضد العرب في 5 / 4 / 1993م أعقبتها حملات نفسية وبوليسية أسفرت عن نتائج - حتى وقت كتابة هذا الكتاب - هي:
تصفية الجانب الأعظم من التواجد العربي الجهادي في أفغانستان ولم يتبق إلا أفراد قلائل مشتتين.
تصفية "التجمع" العربي في بيشاور وتم استبداله بمجموعات من الموظفين العرب العاملين مع هيئات الإغاثة العربية.
لقد سجنت الحكومة الباكستانية عشرات من المجاهدين العرب وأبعدتهم خارج البلاد , وفرت عشرات الأسر العربية إلى الخارج وتم تلفيق عدة قضايا مخدرات لعدد من المجاهدين العرب , وتم البرنامج تحت رعاية مباشرة من السفير الأمريكي في باكستان مع لجان أمنية عربية وإسرائيلية.
إن برنامج التصفية في الحالة الأفغانية قد شمل:
أ - إسرائيل والقوى اليهودية العالمية
ب - الولايات المتحدة التي أصبحت القوة الأولى في العالم بعد هزيمة السوفييت في أفغانستان .
ج- - المرتدين وأهمهم "الحكومة السعودية , النظام المصري , الحكومة الباكستانية " كما شارك النظام التونسي والجزائري كقوى ثانوية تطالب برؤوس رعاياها في باكستان وأفغانستان.
لقد تعهد الرئيس الأمريكي السابق "جورج بوش" بعد انتصاره على العراق في مسرحيته الهزلية "حرب تحرير الكويت" صرح بأن بلاده سوف تطارد المجاهدين "العرب الأفغان" - كما أسموهم - في صحاري العالم . إنها نفس السياسة , فكما أن مجاهدي الإخوان في فلسطين دفعوا وما زالوا يدفعون الثمن حتى هذه اللحظة , فإن المجاهدين العرب في أفغانستان "العرب الأفغان" سوف يطاردون في أقطار الأرض وليس في بلدانهم فقط.
وهناك أحداث تشير إلى أن عملية الملاحقة ضدهم في العالم كله مستمرة . فأجهزة الإستخبارات في أوروبا صرحت علانية أنها تراقب العرب الذين وفدوا إليها من باكستان بعد طردهم من هناك , وأنها سوف تطارد المتطرفين منهم وتعتقلهم .
أما في البلاد العربية فالأمر لا يحتاج إلى تعليق فهناك حاليا قانون في مصر يتكفل بإعدام كل مصري جاهد في أفغانستان . ولم يتبق ملجأ لهؤلاء المجاهدين حاليا غير السودان واليمن . وتعيش هاتان الدولتان في ظل حصار وتآمر دولي شديد , فقد أشعلت أمريكا وحلفاؤها حربا أهلية في اليمن لتقسيمها ولكن خطتهم فشلت . أما السودان فيعيش في ظل حصار اقتصادي دولي خانق , وحرب في الجنوب تمولها السعودية والصليبية الدولية.
إن مطاردة المجاهدين العرب - في فلسطين وأفغانستان - هو قرار لا يتقيد بمدة محددة . ورغم أن القانون الوضعي يسقط التهم بعد مرور فترة من الزمن - عشرون عاما - إلا أن مجاهدي فلسطين ما زالوا ممنوعين من

دخول مصر حتى الآن , رغم أنهم الآن تخطوا الخامسة والستين من العمر . ومنذ شهرين فقط سمحوا لأحدهم(1) أن يدخل مصر وهو في حالة احتضار كي يموت هناك بعد أيام من وصوله . وكانت حالة استثنائية نادرة.

رأينا كيف أن الجهات التي تآمرت ضد المجاهدين العرب في فلسطين وأفغانستان هي نفس الجهات , وأن مخططهم هو نفسه من حيث الجوهر.

والعمل الإسلامي الجهادي كان واحدا من نفس الجوهر وهو خروج جماعات من شباب المسلمين لنصرة إخوانهم في الدين , ولكن ؟ خارج ؟ الحدود "الوطنية" التي فرضتها عليهم الصليبية الدولية بعد انهيار الدولة العثمانية آخر خلافة للمسلمين , ولقد جوبه هذا التحرك الإسلامي بقمع دولي , لأنه من وجهة النظر الصليبية فإن العمل الإسلامي ينبغي أن يحترم الحدود الوطنية التي وضعها الصليبيون . وحتى إن أمكن , ينبغي أن يكون هناك فهما وطنيا للإسلام في كل بقعة . وأظنهم بادروا عند نشوب الحرب الأفغانية بإطلاق تسمية "الجهاد الأفغاني" لإكساب الجهاد صبغة وطنية وذلك لأول مرة في تاريخ المسلمين . والعجيب أن وسائل إعلام الجماعات الإسلامية استخدمت المصطلح المشبوه كما هو.

ولكن تدفق المتطوعين العرب قد أبطل المكيدة وأعطى الجهاد مفهومه الإسلامي الصحيح , كحرب عقائدية وليست حربا وطنية.

والملاحظ أن المجاهدين العرب في أفغانستان لم يستفيدوا من دروس الجهاد في فلسطين , وأكثرهم لم يقرأ إلا قليلا عما حدث عام 1948 م. وبشكل عام فإن دراسة التاريخ وأخذ العبر منه ليست واردة عند هؤلاء الشباب . ومازالت تلك الثروة التاريخية الإسلامية منذ عام 1948م وحتى الآن لم توظف بعد في خدمة التحرك الإسلامي المعاصر.

وفي بعض الجوانب كان واضحا أن العمل الجهادي العربي في أفغانستان أشد تخلفا بكثير من العمل الجهادي في فلسطين , رغم الفارق الزمني الكبير بين الحدثين . أما تكرار نفس الأخطاء فهذا يدل على أننا قوم لا نقرأ وإذا قرأنا فإننا لا نفهم وإذا فهمنا فإننا لا نطبق ما فهمناه.

لقد دخل المتطوعون العرب حرب فلسطين وهم في حالة تنظيمية رائعة , خاصة إذا قورنت بحالة العرب في أفغانستان.

- 1كانت القيادة الدينية والتنظيمية مركزة في يد الشيخ حسن البنا مؤسس ومرشد الجماعة . ولم تكن هناك أي مزاحمة أو شك في جدارته بمنصبه.
- 2كانت الجماعة في وضع تنظيمي جيد ومحدد , وتتمتع بقاعدة شعبية واسعة من الأنصار.
- 3كان للمجاهدين تنظيما منفردا وملحقا بالجماعة "التنظيم الخاص" وكان يتم اختيار أعضائه من أفضل شباب الإخوان التزاما وخلقا وقوة جسمانية.

وإذا قارنا تلك الصورة بمثيلتها في أفغانستان نجد أن:

- 1كان الشيخ عبد الله عزام يؤدي وظيفتي التحريض والتجميع بالنسبة للشباب العربي . فمعظمهم قد أتى إلى أفغانستان نتيجة لخطب الشيخ البليغة والمؤثرة . واتجه هؤلاء صوب بيشاور للمشاركة في الجهاد.
- 2لم يسفر "التجمع" العربي في بيشاور عن أي كيان منظم وكان الشكل الغالب لمهام التجمع الذي أحاط بالشيخ عبد الله عزام هو مهام متفرقة لتقديم خدمات للجبهات في أفغانستان وتقديم المساعدات بشكل مباشر إلى هناك . إضافة لمشاريع وخدمات تعليمية وصحية في أنحاء متفرقة من أفغانستان . ثم بدأت بالتدريج تظهر التجمعات "القطرية" للجنسيات العربية المختلفة وظهرت لها قيادات وأعقب ذلك سلسلة من الإنشقاقات في كل تجمع من هؤلاء.

كان تنظيم هؤلاء الشباب العرب عملية مستحيلة , فالإتجاهات الفكرية والفقهية متباينة أشد التباين , وأفكارهم عن المستقبل الإسلامي وإقامة "الدولة الإسلامية" أشد تباينا وغموضا . وإذا أضفنا إلى ذلك الإختراقات الأمنية العميقة والكثيفة لهذه التجمعات أدركنا مدى المأساة التنظيمية التي عاشها المجاهدون العرب في أفغانستان , وبالتالي محدودية تأثير الشيخ عبد الله عزام على هذا التجمع.

وندرك كذلك ضعف تأثير هذا التجمع على أفغانستان وباكستان قياسا بالإمكانات الهائلة التي امتلكها من العناصر البشرية والمالية.

- 3بينما كان المجاهدون من إخوان 1948م , منتقون من أفضل عناصر التنظيم . كما أنهم تلقوا تدريبا في معسكرات الجيش المصري قبل التحرك نحو فلسطين , فإن المجاهدين العرب في أفغانستان كانوا أبعد ما يكون عن أي نوع من أنواع الإنتقاء أو الإنتظام أو التدريب مع استثنائات قليلة للغاية . وبدأت برامجهم التدريبية تظهر بشيء من الجدية بعد عام 1987م . كما بدأت بعض المجموعات تنظم نفسها , خاصة الجماعات التي وفدت من بلادها بغرض تدريب عناصرها في أفغانستان , وعملت أيضا على تجنيد مزيد من العناصر التي جاءت أفغانستان بدون ارتباطات تنظيمية سابقة.

لقد شهدت بيشاور كثيرا من المعارك الكلامية والمهاترات والإتهامات والإنقسامات , وتبادل الإشاعات وحروب المنشورات بين هذا الخليط المتنافر , وكلما تقدم الوقت كانت تلك السلبيات تتضخم , خاصة مع مجهودات هيئات الإستخبارات العربية العاملة وسط تلك الجماعات.

وعندما جاءت النكبة لذلك التجمع في أبريل 1993م , كان تعليق البعض أنها نعمة من الله , لأن تجمعا بهذا الشكل إذا استمر كان سيفرز كثيرا من المهازل والمصائب . وبالفعل عندما وصلت مأساة التجمع العربي في بيشاور إلى ذروتها ظهر تنظيم "الخلافة" الذي لجأ إلى الجبال في مناطق القبائل القريبة من بيشاور , وأعلن تكفير كل من لم يبايع الخليفة وعين حكاما من طرفه في عدد من البلاد الإسلامية . وأرسل الخليفة "فرمانا" إلى سكان فلسطين يعلن أنه قادم لتحريرهم ويطالبهم بقطع شجر الغرقد حتى لا يختبئ خلفه اليهود . وهدد عرب بيشاور بالقتل إن لم يبايعوا وأنه سوف يسبي نساءهم.

ورغم أن القبائل قتلت مساعد الخليفه إلا أن حركته انتقلت الآن إلى أفغانستان.

هذا مثال لما كان يمكن أن يسفر عنه تجمع جهادي عشوائي بهذا الشكل تعبث به الأهواء وتنخر في عظامه أجهزة المخابرات الدولية والعربية.

في التجربتين الفلسطينية والأفغانية كان للمجاهدين العرب أخطاء مشتركة من أهمها:

- 1وقوع المجاهدين فريسة مخططات الدول الصليبية الكبرى التي تمكنت من استدراجهم إلى ساحات القتال وجعلوهم يعملون بها وفق شروطهم ثم استولوا على نتاج قتالهم لصالح المخططات الصليبية في المنطقة.

لقد نزل المجاهدون إلى ساحات قد خططها الصليبيون ووضعوا قواعد اللعب بها . كما استولى الصليبيون على المفاتيح الرئيسية للعمل , وتركوا للمسلمين مهمة الموت . وعندما جاءت ساعة الغنائم - في أفغانستان - ذهبت جميعها تقريبا إلى أيدي الصليبيين , ولم يجد المسلمون في أيديهم سوى الحرب الأهلية ( للأفغان ) والمطاردة والتشريد والتشويه ( للعرب. (

- 2في الحالتين الفلسطينية والأفغانية كان التحرك الإسلامي الجهادي عاطفيا ؛ لا يملك رؤية سياسية ولا استراتيجية عمل جهادي متكامل. »

- 3في الحالتين انقطعت صلة المجاهدين بعد الحرب بالساحة التي قاتلوا عليها واندمجوا في مسارات أخرى . وانقطع تأثيرهم وتعاملهم مع الساحة التي دفنوا فيها إخوانا لهم . فليس هناك أي برامج طويلة المدى لخدمة القضية الإسلامية في تلك المناطق . وكأن الجهاد حادث عارض مبتور , أو فورة عاطفية سريعا ما تزول وتتلاشى فلا منهج ولا خطة.

وقد دفعت تلك الملاحظة بعض المتابعين إلى التشكك بأن قوى الغرب الكافرة تمتلك القدرة على تحريك عواطف المسلمين متى شاءت كي "يجاهدوا" في الإتجاه الذي يخدم مصالح الغرب وفي التوقيت الذي يناسبه.

فحالات الجهاد الجماعي - وليس القطري - وهما حالتي فلسطين ثم أفغانستان ثم "البوسنة والهرسك" منذ 1992م أي بنهاية الحرب الأفغانية وحتى كتابة هذه السطور , تثبت أن الغرب يمتلك هذه القدرة , وهذا لا يطعن بأي حال في إخلاص المجاهدين وشجاعتهم وحسن نواياهم , ولكن ذلك كله لا يكفي بدون عقل يدبر ويخطط لاستثمار النتائج لصالح المسلمين أنفسهم وليس لصالح أعداء الإسلام.

- 4أخطأ الإخوان المسلمون عام 1948م في تقييم النظام المصري وحاول الشيخ حسن البنا أن يكسب الملك إلى صفه للعمل ضد الإنجليز . وكان مجاهدوا الإخوان في فلسطين يعملون تحت إشراف مباشر من الجيش المصري. وكانت النتيجة أن الملك فاروق هو الذي أمر باغتيال الشيخ حسن البنا , وأن الجيش المصري هو الذي ألقى القبض على مجاهدي الإخوان.

وفي الحالة الأفغانية فإن الشيخ عبد الله عزام قد أحسن الظن في ضياء الحق ونظامه , وأحسن الظن في نوايا الحكومة السعودية وموظفي استخباراتها في باكستان , وظن الشيخ عزام ومعظم المتطوعين العرب أن أمريكا

لا تستطيع أن تمد لهم يدا وأن باكستان أعجز من أن تتصدى لهم . فماذا كانت النتيجة ? ,اغتيل الشيخ في بيشاور بأوامر أمريكية وأيدي باكستانية ومساعدة استخباراتية سعودية . أما الشباب العربي فقد تعرض لحملات متلاحقة خلعتهم من المنطقة كلها - ولم تترك إلا قليلا من الصامدين حتى الآن, وكانت الإستخبارات السعودية هي صاحبة اليد الطولى في مراقبة الشباب العرب في أفغانستان , الذين اعتمدوا إلى أكبر حد على تبرعات "أهل الخير" من السعودية وكانت تلك أكبر الثغرات التي دخل منها عملاء الحكومة السعودية . وكانت تلك المعلومات ذات فائدة عظمى لباقي أجهزة المخابرات المتحالفة ضد المسلمين في أفغانستان - بل وضد الإسلام في كل مكان .

الفصل الثاني

البحث عن الأخوان

تدهور الوضع السياسي في مصر بعد حرب فلسطين , وزادت التوترات الداخلية إلى درجة كبيرة . وأدرك الجميع أن انفجارا قادما لا محالة وأن التركيبة السياسية القائمة سوف تتغير . كان النظام القائم ملكيا مع وجود أحزاب وحياة ديموقراطية , ويسير النظام كله تحت إشراف دقيق من سلطات الإحتلال البريطانية . كان السفير البريطاني هو الحاكم الفعلي للبلاد أما وظيفة الملك فهي ترجمة الإرادة البريطانية إلى قرارات ملكية تقوم الحكومة بتنفيذها . أما الحكومات المتعاقبة فكانت من أحزاب الأقلية التي تفوز دائما في انتخابات مزورة . أما حزب الأغلبية ( الوفد ) فلم يحكم إلا مرة واحدة . أما القوة الشعبية الحقيقية ( الإخوان ) فكانوا خارج اللعبة السياسية تقريا . كان الملك مستاءا من تهميشه لهذا طمع الإخوان في جذبه إلى صفهم والعمل سويا ضد الإحتلال . لكن الملك أدرك أن بريطانيا هي التي وضعته على عرش مصر وأنها القادرة على خلعه . فكان مدينا بوصفه الملكي لبريطانيا العظمى . وامتعاضه منها لا يعني أنه قادر على المضي إلى حد الثورة عليها . لهذا عندما صدرت الإرادة البريطانية باغتيال المرشد العام للإخوان , لم يبطئ الملك في إصدار أوامره إلى خاصة رجاله بتنفيذ عملية الإغتيال.

أضافت عملية الإغتيال مزيدا من الزيت على النار , وكانت هزيمة فلسطين قد هزت وجدان الأمة وأشارت إلى مواطن الداء : الإحتلال الأوروبي والأنظمة العميلة .

أرادت بريطانيا إنقاذ الوضع بعملية "تنفيس" للضغط الشعبي المتزايد فسمحت لحزب الأغلبية بتشكيل الوزارة عسى أن يؤدي ذلك إلى انفراج الأزمة السياسية . وحزب الأغلبية الذي وصل بعد طول انتظار إلى الوزارة - منتهى آماله - وكان لا بد من اتخاذ إجراء يضمن التفاف الشعب حوله ويلبي جزءا من مطالب "الأمة المصرية " .

طالبت حكومة الوفد بإلغاء اتفاقية عام 1936م التي تتيح لبريطانيا احتلالا "قانونيا" لمصر والإحتفاظ بقواعد عسكرية ضخمة على ضفاف قناة السويس , عارض الإنجليز وهددوا فانفجر الشعب الساخط وبدأت حرب مقاومة ضد التواجد العسكري البريطاني في منطقة القناة . واضطرت الحكومة - التي فجرب الموقف - إلى تملق التحرك الشعبي وركوب موجته لتحقيق مزيد من الشعبية ومزيد من الضغط علي الإنجليز . وأعطت الحكومة تسهيلات "للمجاهدين" وانخرط عدد من ضباط الجيش والشرطة في تدريب رجال المقاومة وتهريب الأسلحة والذخائر إليهم.

شملت المقاومة معظم التيارات الوطنية ولكن كان نجمها الساطع بلا منازع هم "الإخوان المسلمون" . فمعظم كوادرهم القتالية التي تكونت في حرب فلسطين مازالت سليمة , وفتحت حكومة الوفد أبواب المعتقلات لهم ولغيرهم من الوطنيين كي يساهموا في حركة المقاومة.

إن عملية "التنفيس" البريطانية كادت أن تؤدي إلى ثورة , وسعى الوفد إلى مزيد من الشعبية وهو على رأس الحكومة , حو له إلى قائد لهذه الثورة التي تضم كل القوي الفاعلة في مصر, خاصة الإخوان المسلمون طليعة هذه القوى وأكثرها حيوية.

تصاعدت تهديدات الإنجليز والملك وخاف الملك من التمادي في اللعبة . فبدأ يتراجع ويسحب دعمه لحركة المقاومة المسلحة في قناة السويس وبدأ عملية تضييق وملاحقة . لكن مشاعر الثورة كانت تتزايد وخسر الوفد كثيرا من أوراقه الشعبية . وكان الإخوان أضعف من أن يتولوا زمام ثورة شعبية بقودونها ضد النظام بكافة أركانه : الإنجليز والملك والحكومة.

كانت أمريكا حاضرة تماما على الساحة المصرية منذ حرب 1948م وراهنت منذ البداية على ضباط الجيش المرتبطين بها . وأعدت رجالها العسكريين لتولي السلطة في مصر عوضا عن الملك على أن تحل أمريكا محل بريطانيا . وعوضا عن فوضى الديموقراطية والأحزاب يأتي الضباط بالقوانين الثورية والأحكام العرفية , لتطهير مصر من كافة القوى الإسلامية والوطنية التي قد تشكل مستقبلا عقبة أمام مشروع العصر : إسرائيل الكبرى.

((((((

في تلك الأيام المليئة بالحماس والعمل والترقب , وعمليات "الفدائيين" تتوالى ضد معسكرات الإنجليز على القناة, تعرفت على الإخوان المسلمين.

كان أخي الأكبر أحد متدربي معسكر الإخوان القريب من بلدتنا . أخذني ذات يوم إلى شعبة الإخوان وسجلت اسمي في قسم الأشبال . كنت أصغر أعضاء الأشبال عمرا ( 6 سنوات تقريبا ) وبالطبع كنت أقصرهم قامة , فضمن لي ذلك أن أكون دائما في مقدمة طابور الأشبال أثناء مسيراتنا إلى خارج البلدة في الصحراء , حيث نحفظ قصار السور , ويقص علينا ( الأخ سعد ) مسؤول الأشبال وهو في عمر أخي الأكبر - ومن أصدقائه المقربين - يقص علينا قصص السيرة والغزوات.

كان الإسلام الذي تلقيناه في قسم الأشبال بالإخوان على يد ( الأخ سعد ) يختلف عما ألفناه في بلدتنا . كان إسلام البلدة عبارة عن طقوس واحتفالات وقصص أكثرها يثير الرهبة مع كثير من التشويش.

ورغم أعمارنا الصغيرة إلا أننا أدركنا أن الإسلام أكثر عمقا وجدية عما تعلمناه في البلدة سواء من الأهل أو المشايخ في الكتاتيب أو المدارس الحكومية.

كانت الرؤية الإسلامية للإخوان - والتي صاغها الشيخ حسن البنا - متكاملة ومحكمة , عبر عنها شعارهم المشهور والجامع : ؛ الله غايتنا والرسول قدوتنا والقرآن دستورنا والجهاد سبيلنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا. »

ورغم مرور نصف قرن من الزمان منذ أن تعلمت الإسلام بهذه الطريقة , فإنني لا أتصور فهما أفضل وأعمق للإسلام خارج تلك الحلقات الخمس المترابطة : الله - الرسول - القرآن - الجهاد - الشهادة.

قد يبدو فهم هذه المعاني شيئا عسيرا بالنسبة لطفل في السادسة من العمر . لكن هناك عاملان ساهما في أن تكون المهمة سهلة ويسيرة . العامل الأول هو الحالة الجهادية التي كنا نحياها وتحيط بنا من كل جانب . عمليات "الفدائيين" كما كان يطلق عليهم آنذاك كانت حديث المجالس في كل ساعة . ومسرحها لا يبعد كثيرا عن بلدتنا . وهناك معسكرات في الصحراء على حافة البلدة يتدرب فيها إخوتنا الكبار , ورجال من البلدة . هناك أسلحة تنقل سرا وتخبأ بعيدا عن أعين جواسيس الإنجليز والحكومة ( بعدما غيرت موقفها من أحداث القناة ) . وشارك في تلك النشاطات ليس الإخوان فقط بل أفراد كثيرون من أعمار ومهن وطبقات اجتماعية متباينة.

شارك في الأحداث أطفال ورجال ونساء , شارك بها طلاب وفلاحون وعمال ومتعطلون . وحتى بعض ( أبناء الليل ) جرفهم الحماس , بعضهم تاب إلى الله على يد شباب الإخوان وشارك معهم في العمليات وأدوا أدوارا بارزة واستشهد بعضهم.

منذ فجر التاريخ والموت هو أهم الأحداث في حياة المصريين . ومازال كذلك خاصة في الريف . لهذا كانت مراسم استقبال بلدتنا لجثث الشهداء مهيبا وتقشعر له أبداننا كأطفال.

وخلافا للمراسم المأساوية للجنازات في مصر , كانت مراسم تأبين الشهداء حماسية وتثير حمية "العامة" للجهاد - هكذا كانوا يطلقون على القتال ضد الإنجليز في الأوساط الشعبية - وكان الخطباء يتبارون في الإشادة بمآثر الشهداء ويدعون الناس إلى الإنخراط في "كتائب المجاهدين. "

كان هذا هو الجو العام - جو يعبق بأريج الجهاد - فما كان أيسر أن نفهم - رغم حداثة عمرنا - ذلك المفهوم الرائع للإسلام والذي صاغه حسن البنا في شعاره الشهير . لقد رأينا الشعار يطبق أمام أعيننا من مئات وآلاف الأشخاص من حولنا - من الإخوة والأهل والجيران - ومن آخرين قدموا من أعماق البلاد في طريقهم إلى "القناة" للجهاد ضد الإنجليز.

ما كان يمكن لنا أن نفهم بغير هذه الطريقة التي وصلت إلى قلوبنا عبر ما لا يحصى من الأمثلة العملية والمجسدة في أهلنا ومن حولنا من الجيران.

إن الكتب والمحاضرات ليست سوى زاد فكري للصفوة , أما البشر الذين يجسدون في حياتهم بين الناس مبادئ الدين فهم حقا الوسيلة الأمثل لنشر الدين على الأرض.

العامل الثاني الذي ساعد في تيسير ذلك الفهم علينا رغم الطفولة وحداثة السن , هو شخصية ( الأخ سعد ) المسؤول عنا في شعبة الأشبال , كان بالنسبة لنا عملاقا مهيبا رغم أن عمره لا يتجاوز السابعة عشر فقط . كان هادئا حازما حنونا ويعتبرنا مهمته المقدسة . وبقدر الأهمية التي أولاها لنا زادت أهمية ( الأخ سعد ) لدى كل أشبال الشعبة , وكانت أهميته وهيبته لدى "الأشبال" تأتي قبل هيبة الأب أو الأم.

كان لنا معه عدة لقاءات كل أسبوع , يبدأ أغلبها بصلاة الفجر جماعة في "الشعبة" , ثم مسيرة طويلة في الصحراء خارج البلدة . ثم تمارين في الزحف وعبور الموانع الطبيعية المناسبة لنا , ثم دروس في القرآن والسيرة والغزوات . كان ذلك أحب اللقاءات إلى نفسي . ولقاءات أخرى بعد العصر للدروس وتمارين على الخطابة - بالطبع كانت محاولاتنا مضحكة جدا - لكنه كان يأخذها بجدية تامة ويعطينا إرشاداته لتحسين مستوانا . ثم يضيف فقرته الأخيرة - وهي أشق الفقرات على أنفسنا - في تنبيه كل شبل إلى أخطائه - فقد كنا نخشى من تأنيب ( الأخ سعد ) رغم أدبه ورقته لكنه كان أشد على نفوسنا من صفعات وركلات الأهل في تأديبهم لنا .

بعد انقلاب الجيش في يوليو 1952م شعرت بتغير كبير في الشعبة ونقص في الحماس وشيء من الإضطراب لم أفهم له سببا . وترك أخي الأكبر الإخوان بينما بقيت مع "الأشبال" حتى اعتقالات 1954م وإن كان ذهابي هناك أصبح نادرا . ثم جاءت الإعتقالات وكان أكثر ما هزني تلك الأنباء التي وصلت إلى البلدة عن التعذيب المخيف الذي نزل بالإخوان وأصابتنا بالكمد تلك الأخبار عن ( الأخ سعد ) وأنه تعرض للإنهيار نتيجة التعذيب في المعتقل.

لقد شاهدنا أو عاصرنا حروبا أخرى مع اليهود , وكنا نفتقد الإسلام في تلك الحروب , وكان ذلك مترجما في افتقاد الإخوان . اختفي مصطلح الجهاد من الحياة العامة , واقتصر الإلتزام الديني إلى داخل الحدود الضيقة التي تسمح بها حكومة الثورة . والإنتماء إلى جماعة الإخوان كان اتهاما كفيلا بتدمير المتهم وعائلته والمحيطين به.

عاصرنا حرب 1956م ثم حرب 1967م وهزيمتها الشنعاء ثم حرب الإستنزاف على ضفاف القناة بين مصر وإسرائيل ثم ثورة العمل الفدائي الفلسطيني.

ومع أوائل السبعينات بدأ نشاط الإخوان من جديد لكنهم لم يظهروا على مسرح الحرب التالية في عام 1973م . كذلك لم يظهروا على الساحة اللبنانية التي كانت بؤرة الصراع في المنطقة العربية بين جميع التيارات الحزبية والعقائدية بما فيها المواجهة "الفلسطينية - الإسرائيلية" - بعد أن نجحت الأنظمة المرتدة في تحجيم القضية الفلسطينية على مراحل فمن قضية إسلامية إلى قضية عربية ثم أخيرا قضية وطنية خاصة بالفلسطينيين أنفسهم - وينوب عنهم ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير التي أعطاها المرتدون صفة "الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني" . وأخيرا في أيام قريبة من وقتنا هذا وقع عرفات وثيقة الإستسلام ورضى أن يكون هو والمنظمة مجرد قوات أمن لحماية إسرائيل ومركز تلك القوات "غزة وأريحا . "

غاب الإخوان - أو غيبوا - عن كل تلك الأحداث طوال تلك المدة وغاب الإسلام معهم.

ولكنهم عادوا في بداية السبعينات كما ذكرنا , وكما تبدلت معالم المنطقة وأوضاعها السياسية والإقتصادية والفكرية . كذلك تغير الإخوان ... تغيروا كثيرا...

فليسوا هم أولئك الفرسان الذين قاتلوا في فلسطين , وليسوا هم أولئك المجاهدين الأبطال على ضفاف القناة ... إنهم قوم آخرون ... جدد في كل شيء ... ولله في خلقه شؤون.

مع بداية السبعينات كنت في حالة مناقضة تماما لذلك العصر الذهبي لفترة "الأشبال" . فبعد نكبة الإخوان عام 1954م بدأت فترة مظلمة لكل شعب مصر بعد أن أجبرته "الثورة" على السير في عكس طريق الإسلام . لقد سافرت في رحلة طويلة داخل "بحر الظلمات" الذي فرضته الثورة فيما عدا نوبات متقطعة من الإلتزام بالصلاة , ذابت كل الإلتزامات بالإسلام . وحتى قبل أن أبدأ في دراستي الجامعية كنت قد توقفت تماما عن الصلاة والصوم . وحسبت نفسي من يومها أقرب إلى "الماركسية" بحكم صداقات عديدة تكونت في تلك الفترة مع يساريين من مصر . وكانت اليسارية بتياراتها المختلفة هي "الموضة" الشائعة في مصر بين شبابها المثقف . فالتعليم الرسمي لم يكن يقدم عن الدين سوى شذرات لا رابط بينها ولا تمس جوهر العقيدة الدينية . وفي الحياة العامة اندثرت الثقافة الدينية فيما عدا ما تنتجه المؤسسة الدينية الرسمية تحت إشراف أجهزة النظام الأمنية . إضافة للممارسات الشعبية الأقرب إلى "الفلكلور" . فكان على طالبي الثقافة أن يتحولوا يسارا حيث الكتب تملأ

المكتبات يقتنيها المقتدرون , وعلى "سور الأزبكية" فإن ما لا يحصى من الكتب المستعملة معروض بأرخص الأسعار . لم يكن صعبا أن يصبح أي "متعلم" مثقفا يساريا في تلك الظروف . وكانت شعارات "الثورة" وخطابات الزعيم تملأ الأسماع والعيون , بل يتنفسها كل فرد طوال يومه وحتى في الكوابيس التي تنتابه أثناء الليل.

كانت هزيمة 1967م هي أقسى الصدمات في حياة جيلنا . وما زالت تداعيات تلك الهزيمة تؤثر في حياتنا وفكرنا كأفراد وكأمة , وستظل كذلك إلى النهاية , نهاية الصراع وتسوية الحسابات النهائية بين المسلمين واليهود . لقد زلزلت الكارثة كل المفاهيم السائدة في المنطقة , وبدأت الأجيال المعاصرة في البحث من جديد عن هويتها الحقيقية . من تلك الزاوية كانت هزيمة يونيو 1967م نعمة عظمي على المنطقة العربية لأنها كانت الثغرة التي عادت منها الشعوب - خاصة الشباب - إلى الإسلام من جديد.

كانت السبعينات هي بداية العودة المكثفة من جانب الشباب إلى الإسلام , كانت عودة مبعثها الرئيسي التحدي اليهودي للإسلام على أرض الإسلام وعقر داره , ودعمت الصليبية الدولية بكل عنفوانها ذلك التحدي اليهودي وأمدته بحبال القوة والتمكين , ورأس الرمح لهذا الكيد كله كانت الأنظمة المرتدة التي حكمت بلاد المسلمين باسم الوطنية وغيرها من الإدعاءات والصيغ الغربية . كان من الطبيعي أن يكون الجهاد هو الشعار والأسلوب والأداة لمواجهة هذا التحدي المصيري.

وكان من المفروض أن يكون في الطليعة الإخوان المسلمون , وهم الركيزة التي انطلق منها ذلك الإنبعاث الإسلامي الجديد - أو حسب الإصطلاح الشائع الصحوة الإسلامية - , ولكن عوامل عديدة تراكمت على "الإخوان" وجعلت حركتهم أبطأ وتصورهم أعجز ووسائلهم أدنى من متطلبات مرحلة التحدي . وفورة الحماس المنبعث من ركام الهزيمة التي ألهبت مشاعر الأمة - والشباب خاصة - وحفزتهم إلى المواجهة والجهاد.

لقد أصابت عوامل الشيخوخة حركة الإخوان المسلمين , وحاولوا فرض عجز الشيخوخة وترددها على الإنبعاث الجديد للشباب بدلا من أن يزودوه بحكمة السنين وخلاصة التجارب . فكان الطلاق النكد بين الإخوان الجدد , وتيار الشباب الإسلامي . فأدان الإخوان حماسة الشباب , وأدان الشباب عجز الإخوان وبدلا من التكامل ساد الشك والقطيعة . وتضاربت الجهود لتضيف عنصرا سلبيا على الساحة الإسلامية المليئة بالسلبيات , والتي تنوء بثقل التحديات المفروضة على التواجد الديني على أراضي العرب والمسلمين.

مضت عدة سنوات على الحرب في أفغانستان وبعد معاملات كثيرة مع الإخوان المسلمين ثم تعاملات أخرى مع الشباب الوافد إلى أفغانستان من مختلف البلاد ومختلف التيارات الإسلامية اتضحت تدريجيا - بالنسبة لي - الصورة العامة على ساحة العمل الإسلامي.

ولما كانت نتائج تلك المعاملات سلبية في الغالب , فقد خرجت باستنتاج مفاده أن التحدي الأساسي أمام العمل الإسلامي هو التحدي الداخلي , وما لم ينتصر العمل الإسلامي - كطليعة للأمة - على نفسه وسلبياته الذاتية فلن يستطيع الإنتصار في التحدي الرئيسي على الساحة الخارجية أي التحدي الصليبي - اليهودي.

وسوف ترد في ثنايا هذا الكتاب أطراف من تلك التعاملات مع تيارات إسلامية عربية - وأفغانية - علما بأن القليل منها كان إيجابيا لدرجة كبيرة . وقد يكون ذلك مفيدا في تقييم العمل الإسلامي في تلك الفترة والتعرف على جوانب الضعف والقوة فيه.

أخذتني هزيمة 1967م إلى شاطئ الإسلام من جديد وكان ذلك في عام 1975م , كانت رحلة شاقة , ولكن فرحة العودة كانت رائعة . وبدأت محاولة البحث عن المكونات الإسلامية القديمة . فالإسلام يعني الإخوان , والإخوان تعني "الله والرسول والقرآن والجهاد والشهادة" . لقد تركتهم على هذا الشكل في تلك الأيام القديمة في الخمسينات.

كنت أعمل في "أبو ظبي" وكانت مساجدها نشطة وعامرة بالنشاط "الثقافي" والمحاضرات والضيوف من بلاد عديدة يلقون المحاضرات الإسلامية وكان ذلك ممتعا لي في ذلك الوقت . ولكنه لم يكن كافيا , فما أبحث عنه غير موجود . ومناخ دولة الإمارات اجتماعيا هو مناخ تجاري للباحثين عن جمع المال , وليس من مجال لظهور تيارات سياسية أو دينية بأي حال.

حاولت أن أسأل من حولي عن الإخوان والجهاد وفلسطين وكانت الإجابات لا تشفي الغليل , وبدت لي مساحة العمل الإسلامي خاوية رغم النشاط المسجدي الذي أراه حولي , ورغم الأخبار من مصر عن "صحوة" فوارة

بين الشباب , وتيارات جديدة تنبت في الجامعات , لا أدري علاقتها بالإخوان ولكني لم أتصور إلا كونها إحدى نتاج نشاطهم الجديد في مصر .
كانت فرحة العودة والشباب ورغد العيش تدفعني إلى الإجتهاد , فأطيل المكوث في المساجد وأحضر من المحاضرات ما استطعت وذهبت إلى الحج مرتين . ولكنني ما زلت أشعر بالفراغ وبأن هذا النوع من "إسلام المترفين" كما أسميته لا يصلح لي بحكم ما تعلمته في طفولتي المبكرة ... فأين الجهاد في سبيل الله ؟ وهل يجاهد الإخوان ضد اليهود في فلسطين انطلاقا من الأردن أو لبنان ؟ وهل يعملون منفردين أو تحت غطاء منظمة أخرى ؟ وكيف يمكن أن أعثر عليهم وأعمل معهم ؟ . كنت متأكدا أنهم يعملون ضد اليهود في فلسطين وأنني سأعثر عليهم في مكان ما بطريقة ما وأعمل معهم في الجهاد.
وحدثت معي عدة مواقف فهمت بعدها أنني مثل أهل الكهف الذين ناموا في كهفهم مئات السنين كانت الدنيا من حولهم قد تبدلت وهم لا يشعرون . بعد تلك المواقف أدركت أن خريطة العمل الإسلامي أصبحت معقدة ولم تعد بسيطة ومباشرة كما كنت أتخيلها , كان في ذهني ثلاثة عناصر فقط : إسلام - إخوان - جهاد . ولكن الأحداث أثبتت سذاجة هذا التصور.
الموقف الأول:
قامت جماعة التبليغ بزيارة المسجد القريب من بيتي وألقى متحدثوهم مواعظا رقيقة وبسيطة ومؤثرة ثم قام أميرهم بدعوة الحضور بالخروج معهم في سبيل الله ونشر الدعوة . هزتني الكلمة وكأنها صدمة كهرباء ... أخيرا ... ما أعياني البحث عنه يأتي إلى عندي هكذا ببساطة ... لم أصدق نفسي ولم أنم لعدة ليال ... كنت أفكر في ترتيب أوضاعي تمهيدا للسفر مع الجماعة للجهاد في سبيل الله . وقررت الخروج مع الجماعة وقررت ما سوف أفعله بالنسبة للأسرة والعمل.
وفي الأسبوع التالي عادت الجماعة إلى المسجد ودعوت الأمير وعددا منهم إلى بيتي كي أفهم منه تفاصيل ذلك الخروج في سبيل الله . واكتشفت مؤخرا أنه سياحة واسعة في البلاد لدعوة الناس إلى الإسلام . ورغم عظمة العمل إلا أنني شعرت بالإحباط , فليس هذا ما أبحث عنه . وشعرت أن الإسم أكبر من حجم العمل - على أهميته - وأحزنني أن يطلق اسم "الخروج في سبيل الله" على شيء آخر غير "القتال في سبيل الله" , وتذكرت قوله تعالى : ؛ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم « . وعدت إلى البحث من جديد.
الموقف الثاني:
كان "عبد الرحيم" زميلا لي في الدراسة الثانوية وقابلته بعد انقطاع سنوات طويلة وهو يعمل مهندسا طيارا في "الإمارات" . وكان قد اهتدى إلى الإسلام في وقت مبكر من شبابه - سابقا إياي بعدة سنوات - كما أنه اجتهد في تحصيل العلوم الشرعية , فاعتبرته لذلك "مرجعية دينية" بالنسبة لي . زرته يوما في بيته مهموما أسأله عن الجهاد وكيف السبيل إلى فلسطين - أو لبنان ( كانت الحرب الأهلية هناك قد بدأت وذبح الكثير من المسلمين ) - أو إرتريا وكانت أخبار تأتي من هناك عن مسلمين وجهاد.
كان رأيه أن المنظمات الفلسطينية تعتنق الشيوعية فلا يجوز القتال معها , وفي كل الأماكن الأخرى فإن الرايات "عمية" وملعون من يقاتل تحت راية "عمية" . ثم أن إصلاح حال المسلمين يبدأ بإصلاح الفرد المسلم والإسرة المسلمة وبالتالي سوف ينصلح المجتمع ويسود فيه قانون الإسلام - ويومها نستطيع أن نجاهد اليهود وغيرهم - . ولما كان الجهاد هو ذروة سنام الإسلام , فإن المجاهد لا بد أن يبلغ ذروة الكمال في تطبيق الإسلام من فرائض وسنن , وأن يطاع الله تمام الطاعة وتجتنب نواهيه تمام الإجتناب . وإلا فإن أي معصية سوف تؤدي إلى هزيمة , وأي زيغ في النية سوف يهوي بصاحبها في قاع جهنم رغما عما تكبده من مشقة حيث أن عمله قد أحبط . جادلته بما أملك من حجة : إذا كان هؤلاء راياتهم شيوعية والآخرون رايتهم عمية , فلماذا لا نتحرك ونضع لأنفسنا راية إسلامية ؟ . وإذا كان تحويل المجتمات يتم بطريقة "ميكانيكية" من الفرد إلى الأسرة إلى المجتمع إلى النظام الإسلامي , فلماذا لم يكن الأمر كذلك مع رسولنا - ص - - ولماذا تكبد وأصحابه كل تلك المشاق والمعارك والدماء ؟ إذن المسألة ليست تحويلا "ميكانيكيا" للمجتمع , بل مسألة صراع بالكلمة والسيف حتى يتم التغيير المنشود.
أما عن المجاهد وكونه قمة شامخة في دنيا الإسلام فهذا يستحيل تقريبا على كل أو معظم المسلمين . وهذا يعني عمليا إيقاف الجهاد لأن الناس ليسوا في المستوى اللائق وعليهم قضاء فترات أطول - قد لا تتسع لها أعمارهم المحدودة - للوصول إلى تلك المستويات السامقة التي قد لا يبلغها غير الأنبياء والصديقين . وهذا يعني في واقع

الأمر إيقاف الجهاد أو إلغاءه , وترك الأمة فريسة لأعدائها . إن هذا المنطق فيه تحايل على إلغاء تلك الفريضة , فبينما يعترف بها ويبجلها نظريا , يضع الشروط الكفيلة بإلغائها عمليا.
أجاب صديقي إجابة شافية وافية لم تدع مجالا لمزيد من النقاش فقال : ؛ أنت تتكلم بالرأي وليس بالدليل الشرعي « . ومعنى ذلك أن كل حججي التي اجتهدت في حشدها له تعتبر لاغية وكأنها لم تكن . وهكذا توقف الحوار . وشعرت بمزيد من العزلة . وقد صادفتني بعد ذلك بسنوات - على أرض أفغانستان - ومع الشباب العرب تلك المواجهة الغريبة والقاطعة بين "الرأي" و "الدليل الشرعي" . وكان أعجبها في معركة جلال آباد , كما سيأتي ذكرها لاحقا , عندما نصحت بعضهم أن المعركة غير صحيحة عسكريا , فأجاب أنها واجبة شرعا واتهمني بأنني أتكلم بالرأي وليس بالدليل الشرعي (!!) . وكانت النتيجة أننا - كعرب - دفنا في جلال آباد أكبر عدد من الشهداء العرب في أفغانستان . وما زلت حتى الآن أخسر معظم المعارك بين "الرأي" و "الدليل الشرعي" ولم أفهم حتى الآن حاجة الإجراء التكتيكي في ميدان المعركة أو الخطة الإستراتيجية لدى القيادة , إلى دليل شرعي يثبت صحتها , إذا كانت هي نفسها لم تخالف قاعدة شرعية إسلامية معروفة.
الموقف الثالث:
في الخامس عشر من مارس 1978م هاجمت إسرائيل جنوب لبنان ووقعت معارك شديدة بينهم وبين أهل الجنوب والمنظمات الفدائية الفلسطينية هناك . كالعادة كانت خسائر العرب شديدة , لكنهم هذه المرة أصابوا اليهود وعرقلوا تقدمهم بشكل لم يكن متوقعا أدى إلى إطالة مدة القتال .وأتاح ذلك فرصة لاشتعال الحماس لدى الشعوب العربية - خاصة بعد ما أحدثته زيارة السادات للقدس وتراجعاته الحثيثة أمام اليهود سياسيا -.
فتحت مكاتب منظمة التحرير مكاتبها لقبول المتطوعين العرب . وكتب الشيخ "أحمد ابن عبد العزيز مبارك" رئيس المحاكم الشرعية في أبو ظبي فتوى شرعية نشرت في "صحيفة الإتحاد" يبين فيها أن الجهاد إلى جانب الفلسطينيين وضد اليهود أصبح فرض عين على كل مسلم . كان هذا ما أنتظره وعزمت على الرحيل إلى لبنان للجهاد.
مرة أخرى صديقي عبد الرحيم طالبني بالتريث , قائلا بأن رأي الشيخ "أحمد" ليس قطعيا ولا ملزما , ويجب أن أستفتي المزيد من العلماء . وأن ضيفا سيأتيه وهو من "علماء" وزارة الأوقاف وسوف نسأله . وفعلا جاء الرجل ولكنه طلب مهلة إلى يوم الإثنين مساء , لأن "المشايخ" سوف يجتمعون في ذلك اليوم لمناقشة فتوى الشيخ "أحمد" وإصدار حكمهم في الموضوع . لم أكد أذق طعم النوم ليومين حتى جاءنا الشيخ بالحكم في القضية ... فقال :؛ لقد اجتمع المشايخ وقرروا أن رأي الشيخ أحمد صحيح وأن الجهاد فرض عين في هذه الحالة . وعليه فمن أراد أن يذهب للجهاد فلا إثم عليه , ولكن في نفس الوقت فإن الرايات المرفوعة هناك ليست إسلامية , وهي إما شيوعية أو قومية وعلى هذا فلا يجوز القتال تحت هذه الرايات , لذلك فمن أراد القعود فلا إثم عليه. »
كانت صدمة جديدة , وحيرة أشد , كيف يفتينا الشيخ بشيئين متناقضين ومتعارضين في وقت واحد وفي نفس القضية ? ... كيف يكون الجهاد فرض عين ثم يترك الخيار لكل شخص , فمن ذهب فلا إثم عليه ومن قعد فلا إثم عليه ? . لقد وضعوني على مفرق الطريق وطالبوني أن أتصرف كما أرى . فأين الفتوى ? وصديقي "عبد الرحيم" زاد موقفي سوءا برأي جديد أضافه , فقال :؛ طبقا لمهنتي كمهندس طيار فإنني أعلم أن الطيران الإسرائيلي لديه القدرة أن يصيب بالصواريخ منتصف الخط الأبيض الذي يقسم مدرج الطائرات . ونحن مأمورون شرعا بالإعداد لقتال العدو فأين هو الإعداد ? . وإذا كانت الجيوش العربية جميعها لا تستطيع مواجهة إسرائيل , فماذا يملك الفدائيون ? . إن إسرائيل تمتلك إلى جانب الطائرات المتفوقة , القنابل الذرية أيضا . والنتيجة أن علينا شرعا واجب الإعداد حتى نتساوى معهم أو قريبا منهم.
وكانت ليلة عصيبة مرهقة بسبب صديقي ومشايخ الأوقاف . وأخيرا جاء الفرج على يد الشيخ حسن البنا , أقصد الشيخ "عبد البديع صقر" (1) الذي عمل سكرتيرا خاصا للشيخ البنا لمدة عشر سنوات . وكان شخصية محترمة من الجميع , لا يجامل , ذو طابع عملي دؤوب , خرج من مصر عام 1954م فارا من اعتقالات عبد الناصر للإخوان , لهذا رغم أننا ننتمي إلى محافظة واحدة في مصر إلا أنني لم أتعرف عليه إلا عام 1973م في دبي . وكنت أكن له احتراما كبيرا . تصادف وجوده في المدينة وقت أزمتي تلك فاستشرته فيها , فأشار علي بالذهاب للجهاد بلا تردد وقال : ؛ إذهب يا بني فالجهاد فرض عين , وقاتل مع "فتح" فريما وجدت بها إسلاميين وإذا قتلت فسوف تبعث على نيتك . ولا تخش بأسا على أولادك فقد رأينا بالتجربة أن أبناء الشهداء يكونون أغنى وأسعد الأبناء. »

أخذت نفسا عميقا وكأن صخرة ثقيلة قد انزاحت من فوق صدري . وانفتح أمامي طريق مبارك رائع ما زلت أسير فيه منذ سمعت تلك الكلمات المخلصة من الشيخ الحبيب.
مع صديقي "إسماعيل" بدأنا الرحلة من "أبو ظبي" صوب جنوب لبنان. قررنا السفر إلى بيروت منفردين عن غير طريق منظمة التحرير لذلك لم نسجل أسماءنا في مكتبهم في أبو ظبي. ظننا أن ذلك سيكون أكثر أمنا كما أننا توقعنا أن يتصرفوا فينا كما يشاءون وقد يرسلوننا إلى منظمة شيوعية فتكون مشكلة - وكان كلانا ملتحيا بشكل أنيق و"عصري" . وأخذ كل منا مبلغا من المال لنشتري سلاحا من بيروت ( هكذا قدرنا !) فالعاصمة اللبنانية جميع من فيها مسلح ويمكن في تقديرنا شراء سلاح بسهولة . أما التوجه إلى الجنوب فليس من الصعب تدبيره . وهناك سوف نلتحق مباشرة بمراكز الفدائيين .
*****************************
كانت تصورات ساذجة لكن هكذا كنا نفكر , فالتجربة نخوضها لأول مرة على أرض بلد لم نره قبلا مع أناس لا نعلم عنهم شيئا تقريبا . ( وقد تكررت معنا التصورات الساذجة مرات عديدة في السنوات التالية , كما رأينا غيرنا يسقط فيها وربما يفيد أن نورد بعضها في هذا الكتاب , وربما يفيد ذلك الأجيال التالية في عملها أو في تقييم عمل جيلنا في هذا الزمان.(
كنا نحترس من أن تعلم السلطات المصرية بأمرنا - فالحكومة هناك بدأت مسيرة "السلام" , وأصبحت إسرائيل بالنسبة لهم "دولة صديقة" - , هذا إضافة إلى الحساسية التقليدية للنظام المصري من العمل الجهادي - خاصة إذا كان ضد اليهود , وتجربة الإخوان في فلسطين كانت نموذجا لسياسة الدولة المصرية في كل العهود الملكي أو الثوري - في مجابهة المجاهدين وتصفيتهم.
وكنا نقدر أيضا أن منظمة التحرير إنما هي ألعوبة للأنظمة العربية وأنها مخترقة بكافة أنظمة الإستخبارات في المنطقة - حتى اليهودية منها - وكانت الإغتيالات التي حدثت لقادة المقاومة في بيروت وعمليات الكوماندوز الإسرائيلي ضد قواعد الفدائيين في جنوب لبنان شواهد لا تحتاج إلى توضيح على مدى عمق الإختراقات الأمنية للمنظمة.
لهذا تفادينا الإتصال بمكاتب المنظمة وأردنا الوصول إلى الخط الأول مباشرة . كانت المفاجأة الأولى أن الطائرة التي ركبناها كان معظم ركابها من شباب المتطوعين من الفلسطينيين المقيمين في دولة الإمارات وكثير منهم يعرف إسماعيل - وهو شاب رياضي و "كابتن" فريق للكرة الطائرة وذو علاقات اجتماعية واسعة - وبعضهم عرفني , وهكذا وبصفتنا المصريين الوحيدين على الطائرة وأيضا في كل المتطوعين في هذه الأزمة على حد علمنا , فقد كنا موضع حفاوة واهتمام من الجميع وبدلا من التخفي وجدنا أنفسنا فجأة تحت الأضواء.
مرة أخرى على الحدود السورية - اللبنانية في منطقة المعمل احتجزت المخابرات السورية جميع المتطوعين - ونحن معهم - واصطحبت الجميع إلى مبنى ضخم لمدة ساعات تم فيها تصوير كل شخص على حدة , وتحويل "الجوازات" إلى غرفة خاصة لفحصها وتصويرها . أثار هذا تذمر الشباب , ونمنا الليلة داخل الباص ونحن جلوس على المقاعد في جو درجة حرارته تحت الصفر, وسط الثلوج . ولم تكن معنا ملابس مناسبة ونحن قادمون من مناطق حارة لا تعرف الشتاء تقريبا.
وهمست في أذن "إسماعيل" بأننا قد أصبحنا في سجلات المخابرات السورية وهذا لا يبشر بخير , ومن الأفضل ألا نفكر في زيارة سوريا مرة أخرى . وبالفعل فقد اكتشف إسماعيل بعد عشر سنوات تقريبا بأن اسمينا قد كتبا متتابعين على قائمة واحدة "سوداء" , وقد أخبره بذلك أقارب زوجته السورية التي تزوجها في وقت لاحق . كان صعبا أن يصدق "إسماعيل" ذلك في وقتها ومكاتب المنظمة تعمل بحرية في دمشق . والإذاعة السورية لا تمل في الحديث في "الكفاح المسلح ضد العدو الصهيوني" . وقد وصلنا دمشق وزرنا مكاتب المنظمة بدون اعتراض من أحد أو حتى تسجيل أسماء أو التقاط صور.
وإلى هذا الوقت لا أدري لماذا وضعت المخابرات السورية اسمينا في القائمة السوداء . وبعد أبعة عشر عاما من هذه الواقعة وجدت اسمي أيضا في قائمة سوداء لدى السلطات الباكستانية في أعقاب انتهاء الجهاد في أفغانستان عام 1992م . ومازلت لا أدري بالضبط الدافع وراء هذا العمل , فلم أرتكب أية جرائم ضد كلا البلدين سوى العبور من أراضيها بطريقة رسمية تماما للجهاد في الدولة المجاورة ضد اليهود تارة وضد السوفييت والشيوعيين تارة أخرى.

إن الحكومات المرتدة - الوطنية - لن تتسامح على الإطلاق مع التحرك الجهادي حتى وإن التقت مصالحها معه بشكل مؤقت  وإن تصفية العمل الجهادي خاصة - والإسلامي عامة - هو قضية مصيرية بالنسبة للحكومات المرتدة وبنفس القدر الذي تشعر به القوى اليهودية والصليبية.
إن هذه الحقيقة على بساطتها تبدو أحيانا مستعصية على أفهام معظم المسلمين . ونشاهد الآن كيف أن مجاهدي كشمير وقطاع من مجاهدي باكستان الذين شاركوا في جهاد أفغانستان مازالوا يعملون بتنسيق كامل مع المخابرات الباكستانية في قضية كشمير , رغم علمهم بمعاداة حكومة "بيناظير بوتو" للإسلام بشكل واضح وتصفيتها للتواجد العربي الجهادي في بيشاور وتحطيمها لأفغانستان وشعبها بدعمها للحرب الأهلية في كابل مع اضطهاد المهاجرين والتضييق عليهم على الحدود وفي داخل البلاد .  كما نشاهد  حاليا خروج الشباب من "السعودية" للجهاد في البوسنة , تحت إشراف وتشجيع حكومة بلادهم , والتي لا يخفى دورها في مقاومة العمل الإسلامي في أرجاء المعمودة.
إن التسهيلات والإبتسامات التي قد تمنحها هذه الحكومة المرتدة أو تلك  لهذا الفصيل أو ذاك من العمل الإسلامي , ما هي إلا استدراج حتى يحين الوقت المناسب للذبح عندما تنتهي "فترة المصالح" العابرة.
لفت نظري في بيروت اتساع العمل الإداري للمنظمة ودقته , فقد سلمنا وثائق السفر ( الجوازات ) في أحد المكاتب التي يعمل بها عدد كبير من الموظفين , كأي هيئة جوازات في دولة , وعندما انتقلنا إلى الجنوب في وقت لاحق , اكتشفنا أن وثائقنا قد انتقلت إلى مقر القيادة في صيدا .
كان من الواضح أن لدى "المنظمة" و "فتح" وفرة في الكوادر المؤهلة في الإدارة كما في العمل العسكري أو الثقافي.
كانت المعركة في الجنوب قد هدأت - ولكن لم تتوقف - ولم يستطع اليهود تجاوز جنوب مدينة صور حيث أوقفتهم المقاومة الفلسطينية . كان الحماس في الذروة . ورغما عن الحماس والتأهيل العالي والإنضباط الواضح في القطاعات التي تعاملنا معها , إلا أني شعرت أن العمل كان خاويا , لم أشعر بحرارة الإيمان ولا يكان يظهر للإسلام أثر في كل هذا الخضم من النشاط والحركة . نادرا ما وجدت مصليا , وكان ذلك نادرا ومثار دهشة من الآخرين . لقد حاولوا تعويض هذا النقص بزيادة الصراخ والأناشيد الحماسية .
أما احتياطاتهم الأمنية فكانت ملموسة , ولعدة مرات تم تصويرنا بحجة استخراج هويات - وهو ما لم يحدث بالمرة - . واكتشفوا بالفعل عددا من "العملاء" في دفعتنا , وأثناء التدريب تم إطلاق النار عليهم في "الأرجل" وخرجوا من بيننا . وقد أخبرنا مدربونا بذلك فيما بعد.
وقد قارنت تلك الصورة التي انطبعت في ذهني في أول تجربة عملية "للجهاد" , عندما انتقلت إلى المحطة التالية - أفغانستان - في العام التالي مباشرة . وكان التناقض بين الصورتين واضحا . في أفغانستان لمست الإيمان كما لم أعهده قبلا أو تخيلته - خاصة في سنواته الثلاث الأولى - أما سوى ذلك فليس هناك شيء , لا كوادر مؤهلة ولا نظام ولا أمنيات . وظل الجهاد في أفغانستان يعاني من ذلك النقص حتى آخر أيامه.
وفي بيروت ثم في جنوب لبنان وداخل منظمة فتح بحثت عن "الإخوان" فلم أجد  لهم أثرا . وكان بعض الهمس يدور حول أشخاص معدودين كانت لهم ارتباطات إخوانية قديمة . وأكثرهم قد تنازل عنها وانجرف في تيار "اليسارية التقدمية" وقالوا أن مؤسسي فتح بما فيهم "أبو عمار" كانوا إخوانا . وسمعت أن عددا من الكبار في فتح يمارسون الصلاة , ثم لا شيء أكثر من ذلك , ولكنهم محسوبون كأنهم تيار إسلامي داخل "فتح" , التي بدورها اتخذت إطارا فكريا فضفاضا يحتوي الجميع ما داموا قد اتخذوا الكفاح المسلح شعارا ومنهجا . لهذا قابلنا الشيوعيين بأنواعهم وكذلك القوميين , ومسلمين سنة وشيعة , ودروزا أيضا على القائمة الإسلامية ... وهكذا , حتى الجنسيات المتعددة كانت موجودة من دول إسلامية وأوروبية وحتى أمريكية.
ليس هناك اعتبار لديانة أو مذهب فالمهم هو "الكفاح المسلح" ضد "الصهيونية" و "الإمبريالية "  ... فذلك هو الدين الجديد الذي يجمع كل هؤلاء.
كنت أتخيل أنني سأجد في لبنان تواجدا إسلاميا قويا , فطبيعة المعركة تحتم ذلك , فاليهود يزحفون بجيشهم ويدمرون الجنوب . والموارنة في الداخل يقتلون المسلمين حيث وجدوهم ويمارسون ضدهم أحط أساليب القتل والتعذيب وانتهاك الأعراض . ومع ذلك لا أجد إسلاما أو جهادا - ناهيك عن الإخوان المسلمين - لكني أجد فقط "الكفاح المسلح . "

ومع ذلك لم نيأس , حتى جاء يوم الجمعة ونحن في معسكر التدريب في قرية الدامور , فذهبنا للصلاة في بيت صغير على الشارع العام المواجه لشاطئ البحر , كان قد حول إلى مسجد وكانت القرية كلها للموارنة سابقا قبل أن يطردوا منها في الحرب الشعواء الدائرة والمنعدمة الهوية.
كان خطيب الجمعة شابا لبنانيا بليغ الخطاب ممتلئا حماسا وقوة . نظرت وإسماعيل كل منا إلى الآخر وأعيننا تنطق بالفرح أن قد وجدنا ضالتنا أخيرا . بعد الصلاة أسرعنا إلى خارج المسجد وانتظرنا حتى انتهى من الأحاديث الفرعية والأسئلة من جمهور المصلين , وما أن فرغ حتى أحطنا به وجذبناه برفق بعيدا عن الحاضرين وأمطرناه بوابل من الأسئلة المتلاحقة : أين المسلمون ؟ أين الجهاد ؟ أين المعسكرات ؟ كيف نجدكم ؟ هل يمكن أن نجاهد معكم وأين وكيف؟
رغم صلابة الشاب إلا أن أجوبته أحبطت آمالنا , المسلمون من أهل السنة هم غالبية أهل لبنان - هكذا أخبرنا - ولكنهم محرومون من السلاح ومن تنظيم أنفسهم والجميع ضدهم حتى "فتح" , والجيش السوري , جميع تنظيمات لبنان وفئاته تستمد قوتها من دول عربية أو غربية ما عدا أهل السنة فهم ضائعون , والسعودية تمد الموارنة بالسلاح والمال ولا تساعد أهل السنة بشيء بل تساعد الآخرين على قتلهم . ومضى يسرد عناصر المأساة التي دمرت آمالنا في أن نجد بغيتنا في لبنان.
تشاورت وإسماعيل في الأمر ... وقال أننا لن نجد ما نريد وعلينا أن نرجع كما أتينا ... وأجبته بأن علينا أن نبدأ في قتال اليهود ونستمر فيه مهما كان الثمن , فلو سارت الأمور على هذا المنوال فسوف يأتي اليوم الذي يدخلون فيه علينا بيوتنا ويسحبونا من أعناقنا للذبح . وإذا لم يكن للمسلمين راية فلا بد أن يبدأ العمل لرفع تلك الراية ولنبذل نحن محاولة من طرفنا , فلا بد أن يبدأ أحد في صنع شيء ما.
لقد انتعشت آمالنا في المستقبل عندما شاهدنا الإقبال على الصلاة في معسكر الدامور . وتزايد العدد بالتدريج حتى بلغ ربع عدد المتدربين , وأثر في نفوسنا كثيرا قصتنا مع ذلك الفتى الذي كان يجلس يراقبنا أثناء الصلاة لعدة أيام , ثم جاء على استحياء كي يقول :؛ أريد أن أصلي معكم ولكني لا أعلم ماذا تقولون في الصلاة « . ورغم كونه في حوالي العشرين إلا أنه لم يكن يحفظ أي شيء من القرآن . لقد أحزننا هذا كثيرا ... كيف يمكن أن يصل شاب مسلم إلى هذا السن ولا يحفظ حتى فاتحة الكتاب.
بدأ الشاب يتعلم وانضم إلى صفوف المصلين وغمره فرح طفولي وحماس فطري غريب.
فترة الدامور أقنعتني وصديقي بأنه يمكن عمل الكثير في لبنان وحتى في صفوف المقاومة الفلسطينية , وأن غياب العمل الجهادي والدعوى عن هذه الساحة كان كارثة يتحمل الإسلاميون جزء منها . ولاحظنا أن كثيرا من شباب المقاومة يزداد شغفهم بالإسلام كلما اقتربت أجواء المعركة مع اليهود , وافتقاد الدعاة المقاتلين في تلك المواضع إنما هو جريمة يتحملون وزرها وخسارة فادحة للإسلام وأهله.
قارنت تلك الصورة بما وجدته في أفغانستان فكنت أشعر بالألم وكيف أن المجاهدين الأفغان لم يكن أحد منهم يهجر الصلاة من الطفل الصغير إلى الشيخ الطاعن في السن , وكيف أن للإسلام وشعائره قدسية هائلة في النفوس - رغم جهلهم بالعربية وبالتالي جهلهم بكثير من أحكام الإسلام . حتى أن الشيوعيين الأفغان ما كانوا يجرؤون على الجهر بآرائهم في الدين على الملإ إلا في حالات نادرة أدت إلى كوارث بالنسبة لهم.
وأدركت إلى أي مدى أصبح الإسلام غريبا في بلاد العرب.
كنت أنوي الإستقرار في لبنان والعمل مع منظمة فتح وإحضار أسرتي إلى الجنوب . لولا حادث لم يكن في الحسبان أدى إلى إلغاء المشروع والإنسحاب نهائيا من المنطقة . في صباح أحد الأيام وعلى طعام الإفطار تجمع شباب مجموعتنا على الطعام , وكنا في مكان لا يبعد كثيرا عن مواقع اليهود في مدينة صور . وفجأة حدثت مشادة بين زميلين فبادر أحدهما بسب الآخر وسب "الرب."
وجدت نفسي أتصدر أزمة خطيرة وشعرت أن من واجبي أن أقتل هذا الشخص فورا . وبصعوبة توقفت الأزمة تحت مستوى إطلاق النار , واعتذر قائد الموقع وكذلك اعتذر "المذنب" . ولكن المشكلة عندي كانت أعمق بكثير من أن ينهيها اعتذار . فما زال كل شيء على حاله , وكما أنني حر في أن أصلي وقت ما أشاء ومعي عدد من الإخوة في الموقع , فإن هذا الشخص لديه الحرية أيضا أن يسب الرب وقت ما شاء , ولكني ليس أمامي لأنه متأكد بأنني سوف أقتله في المرة القادمة.

بدأت أفكر في الرحيل وتأكد عزمي عندما علمت أن القيادة تنوي تجميع "الشيوخ" - أي المصلين كما يطلقون عليهم - ووضعهم في معسكر خاص يفصل بين معسكر "فتح" ومعسكر تنظيم شيوعي منافس , أنشيء مؤخرا على مسافة ليست بعيدة.
أدركنا أنها محاولة للتخلص منا - نحن الشيوخ - بطريقة لطيفة من خلال عمليات تصفية حسابات بين التيارات المتصارعة.
لقد توقفت منذ أيام - وبأوامر من "أبو عمار" - العمليات ضد القوات اليهودية . وكانت العمليات منذ التقدم اليهودي عبارة عن تسلل مجموعات صغيرة خلف خطوط العدو لزرع ألغام على الطرق.
ومع توقف العمليات أغلقت أمامي فرصة القتال ضد اليهود , أما فرصة القتال مع الجيران , من المنظمات الأخرى , وحتى أعداء الرب من نفس المنظمة فهي فرص متزايدة بمرور الوقت , لهذا قررت الرحيل.
ولم أدرك أن خبرا قرأته بدون عناية كبيرة كان هو برنامجي المقبل للعام القادم وحتى أربعة عشر عاما وإلى وقت كتابة هذه الأسطر , كان الخبر على صدر الصفحة الأولى لجريدة "النهار" اللبنانية , ويقول الخبر أنه في يوم 27 أبريل عام 1978م وقع انقلاب عسكري في أفغانستان قاده ضباط ماركسيون , وأعلنوا أفغانستان دولة اشتراكية , وأن الضباط الثائرون قد قتلوا رئيس الجمهورية "السردار محمد داوود" وجميع أفراد عائلته , وأعلنوا "نور محمد طرقي" رئيس حزب "خلق" الشيوعي رئيسا لجمهورية أفغانستان الديموقراطية الإشتراكية .
وكان "السردار محمد داوود" القتيل قد انقلب على ابن عمه ملك أفغانستان السابق "ظاهر شاه" أثناء سفره إلى الخارج عام 1973م وأعلن البلاد جمهورية لأول مرة في تاريخها.
لم أهتم كثيرا بالخبر ... لم أتصور أفغانستان أكثر من قرية , وأتذكر ملكها السابق حينما زار مصر عام 1960م وألقى خطابا في جامعة القاهرة بصحبة "جمال عبد الناصر" , وكنت طالبا بالصف الأول الثانوي , وحضر الإحتفال مئات عديدة من طلاب وطالبات الثانوي والجامعات , وأتذكر أن خطاب الملك لم يكن مثيرا لنا بل كان مملا للغاية حتى أننا تعمدنا مضايقته ومقاطعته بعد كل جملة بتصفيق حاد لا داعي له فنحن لا نفهم ما يقوله باللغة "البوشتونية" والترجمة إلى العربية بطيئة وركيكة وكاد يفلت زمام الوقار في الحفل وأن يعجز الملك عن متابعة الخطاب , وتمادينا في الشوشرة عليه وأغرانا به مظهره الذي لا يلائم ملكا بقدر ما يلائم مدير "مصلحة" , كان نحيلا وطويلا يرتدي بدلة داكنة أوسع قليلا من مقاسه , حتى أن أحد زملائنا النجباء همس بيننا بأن جلالته قد استأجر هذه البدلة من عند "المكوجي" , فسقطنا تحت الكراسي نغالب الضحك ونكتمه بصعوبة . أوشك الموقف على الإنفجار والفوضى , وكان طلاب الثانوي يحتلون الطابق العلوي لقاعة الإجتماعات , سكت الملك قليلا - في احتجاج مهذب على ا لهرج في الطابق العلوي - فنظرنا نستطلع لماذا سكت فوجدناه ينظر ساهما إلى الطاولة التي أمامه بينما الزعيم ناصر الجالس إلى يمينه يوجه إلينا نظرة نارية , جعلتنا نرتجف هلعا ونكتم أنفاسنا وليس ضحكاتنا فقط , ونعد الثواني على انتهاء الحفل , الذي ما أن انتهى حتى ولينا نعدو إلى بيوتنا ونختار الطرق المجهولة والمتشعبة وقد توقعنا أن تطاردنا مخابرات الزعيم وتضعنا في أقبية التعذيب التي لا يجهلها أحد في مصر.
ابتسمت لهذه الذكريات المضحكة لشقاوة المرحلة الثانوية , وتعجبت لاهتمام الصحيفة بالخبر ووضعه في صفحتها الأولى , مع صورة للرئيس الجديد "طرقي" بوجهه الشاحب وشعره الأشقر الأشيب وشاربه الكثيف . فأي أهمية لذلك البلد المجهول ذو الإنقلابات المتتابعة ؟ ولماذا هذا الإهتمام بدولة يستأجر ملكها بدلة من عند "المكوجي" ؟ . ملك غير مقنع لأحد ولا يتقن الخطابة حتى أضحكنا وكدنا أن نفقد بسببه مستقبلنا الدراسي , في ذلك الإحتفال التاريخي لعيد العلم في جامعة القاهرة في تلك السنة الغابرة 1960م.
وكم كنت مخطئا في ذلك الظن , وكم كانت أفغانستان هامة جدا , على مستوى حياتي الشخصية - حتى الآن - وعلى المستوى الدولي منذ ذلك الإنقلاب وحتى 26 أبريل 1992م حينما انهار النظام الشيوعي هناك.
لأربعة عشر عاما كاملة كانت أفغانستان حديث العالم بل أنها - على صغرها وضئالة شأنها في نظري - غيرت خريطة العالم السياسية وكانت نقطة البداية لما يعيشه العالم من أحداث في وقتنا الراهن.
عدت إلى أبو ظبي , وقابلت "إسماعيل" الذي عاد قبلي بحوالي شهر وجلسنا نتداول في الأمر ونحدد عناصر الموقف:

1- العمل في صفوف "فتح" لن يحقق لنا ما نطمح إليه من الجهاد ضد اليهود . ولا بد من أن نبذل مجهودا ونبحث عن طرق لإيجاد هذه الراية.

2- المنظمات الفلسطينية ليست سوى ألعوبة لطمس الطابع الديني للقضية الفلسطينية , أما الأنظمة العربية فهي الحارس الحقيقي لأمن إسرائيل وصانع انتصاراتها ومجدها وعلى ذلك فإن استعادة الطابع الإسلامي لقضية فلسطين سوف يجعل الصدام حتميا مع الأنظمة العربية.

3- الشعوب المسلمة تتعرض للمذابح في كثير من المواقع : فلسطين - لبنان - الصومال - الفلبين - الهند... الخ ولن يجدوا حماية من أي جهة دولية أو حكومات "إسلامية !!" . وعلى هذا يجب أن نعمل على تجهيز "قوة متحركة" من الشباب الإسلامي المدرب كي يتدخل لتقديم العون للدفاع عن المسلمين في مواضع الأزمات.

4- " جماعة الإخوان المسلمين" أصابها الوهن لأسباب عديدة ولم تعد قادرة على حمل لواء الجهاد ومواجهة التحديات المفروضة على شعوبنا , لهذا فإن الأجيال الجديدة بدأت تبحث عن طرق أخرى وتكون جماعات جديدة قادرة على تحدي التهديد اليهودي للمسلمين . ومع هذا فإن الخبرات القتالية - القديمة - للإخوان لا غنى عنها في تكوين "القوة الإسلامية" المنشودة.

5- لا بد من البحث عن ساحة مناسبة لتجميع الشباب المسلم وتدريبهم وتنظيمهم ثم تحريكهم للعمل في الأماكن المطلوبة وإذا كانت الساحة اللبنانية غير صالحة لهذا العمل - ولو أننا ما زلنا نرى فيها احتمالا ولو صغيرا - فلا بد من البحث عن ساحة أخرى . وأن نجد وسيلة لإقناع الإخوان بهذا المشروع والمساهمة فيه بخبراتهم وكوادرهم البشرية التي هي بالتأكيد - الوحيدة تقريبا - في هذا المجال على الساحة الإسلامية , ونقصد بهم بقايا مجاهدي 1948م وحرب القناة في 1951م في مصر.

كانت ظروف "الإخوان" مواتية في ذلك الوقت في معظم دول الخليج واليمن الشمالي , وصادفوا اتساعا أفقيا ملحوظا داخل مصر . في أبو ظبي كان معلوما أن وزارتي التربية والشؤون الدينية والأوقاف هما رهن تصرف الإخوان والآن وزيري التربية والأوقاف هما من "الإخوان المواطنين" أي أهل البلد . وفي اليمن كانت وزارة التربية أيضا رهن تصرفهم , أما الأعمال الحرة فقد كان العديد منهم قد وصلوا فيها إلى مراتب متقدمة خاصة أولئك الذين فروا من اعتقالات عبد الناصر عام 1954.

كان يعمل في أبو ظبي عدد من البارزين في حركة الإخوان من مختلف الجنسيات . حاولنا بشكل مباشر أو غير مباشر وباستخدام واسطة مناسبة أن نستطلع رأي الإخوان المصريين بالنسبة للجهاد ضد اليهود , أو لمساعدة المسلمين المنكوبين بالمذابح . وبوجه عام كان الناتج سلبيا رغم الترحيب النظري بالفكرة بل والتأكيد على أن الجهاد هو من صلب منهج الإخوان . وكانت حجتهم في الإحجام عن الحركة هو الخوف من الحكومة أن تنكل بهم قبل أن يستكملوا بنيانهم خاصة إذا شعروا بمثل هذا التحرك العسكري . أما عن الساحة المصرية والجهاد فيها ضد اليهود والسادات , فكان اعتراضهم أن الصف الإسلامي غير موحد , والجماعات أصبحت لا حصر لها , وأن الإخوان يحاولون توحيد الحركة تحت رايتهم حتى يتمكنوا من الجهاد.

بمثل هذه الأعذار وغيرها فهمنا أنهم غير مستعدين للسير في هذا الطريق . ومع هذا كان لا بد من عمل شيء.

من دائرة الأصدقاء اكتسبنا شخصين متعاطفين مع الفكرة . ولما لم يكن لدينا تصور عملي واضح ولا إمكانية للتنفيذ بدون أن يتبنى الفكرة تنظيم كبير وقوي كالإخوان , لم يكن ممكنا أن نقنع غير القليلين بالوجاهة الفكرية للموضوع أما التنفيذ العملي , فقد وقفنا تائهين حتى جاءتنا فجأة الفرصة التي ننتظرها ومن الناحية التي لم نتوقعها بالمرة ... أفغانستان.

في المسجد الصغير لسوق أبو ظبي القديم تعرفنا عمليا علي أول الخيوط التي أوصلتنا إلى أفغانستان . كان إمام المسجد شيخا أفغانيا تجاوز السبعين وكان يعمل قاضيا في مدينة هيرات وهو كما قال لنا من السلالة النبوية الشريفة ويدعى "السيد محمد طاهر" . كان وقورا محبوبا قراءته للقرآن مؤثرة فاجتذبت إلى مسجده كثيرين . أما مؤذن المسجد فهو ولده "السيد أحمد" وهو شاب قوي البنية لطيف المعشر , له أخ وحيد في الثانية عشر يحاول جاهدا العثور على فرصة لدراسة العلوم الدينية في المدارس المحلية.

كنا نجلس مع الشيخ وابناه في غرفتهم الضيقة جدا داخل المسجد كي يحدثنا عن أفغانستان وما يجري فيها.

كانت الصحف الغربية ووكالات الأنباء تنقل أطرافا عن الأحداث الدامية في أفغانستان , وتحذر بأنها "كوبا" جديدة في المنطقة . وكالعادة فإن الصحف العربية - والإسلامية !! - بدأت تترجم عنها نفس الكلام وتطلق نفس التحذيرات . وعرفنا أخبار المقاومة الشعبية الأفغانية للنظام الشيوعي الدموي وظهر مصطلح "الجهاد" و

"المجاهدون" في صحف الغرب والصحف العربية فاستيقظت كل حواسنا وبدأنا في متابعة الأمر عن كثب ومن كل المصادر الممكنة.
قررت مع صديقي "إسماعيل" أن الذهاب إلي أفغانستان أصبح ضروريا , فربما يأتي الحل الذي ننتظره من هناك . وتأكدنا من "السيد طاهر" من قيام حركة جهاد قوية يرأسها علماء , يقاتلون ببطولة جيوش الحكومة الماركسية, وأن قرى بأكملها تباد ويدفن علماء وطلاب علم أحياء , وأن المجاهدين في حاجة ماسة لكل شيء لمواجهة الآلة العسكرية الحديثة للدولة المدعومة من موسكو.
ذهبنا لزيارة الشيخ طاهر مع عدد من الأصدقاء المهتمين بما يحدث في أفغانستان , فوجدناه يستضيف وفدا قدم مؤخرا من هناك , خمسة علماء يرأسهم "مولوي آدم" وهو شيخ نحيف طويل القامة يرتدي نظارة طبية سميكة من النوع الرخيص . كان هو الوحيد من بينهم الذي يستطيع التفاهم بعربية فصيحة لا تخلو من أخطاء.
كانوا جميعا من ولاية باكتيا . كان الوفد جميعا من المجاهدين العلماء وقد شاركوا في معارك الأشهر الماضية . وحدثونا كثيرا عن وقائع القتال وفظائع الحكم الشيوعي , وقوة الجيش ومعداته الحديثة , وانتصاراتهم على الشيوعيين في مواقع كثيرة وأحداث عجيبة صادفتهم في الجهاد.
كان سقوط الشاه في إيران , وانتصار "الثورة الإسلامية" سببا كبيرا في ارتفاع المعنويات الإسلامية في كل العالم . وبالنسبة لنا بوجه خاص , فقد شعرنا أن مشروعنا الجهادي ليس خياليا كما يظن البعض , وفي الشهر التالي لسقوط الشاه تعرضت مدينة هيرات الأفغانية لمجزرة هائلة راح ضحيتها ثلاثون ألفا من المسلمين على أيدي القوات الشيوعية التي يدعمها طيران سوفييتي .وكانت أخبار هيرات تصل بالتفصيل إلى "الشيخ طاهر" ونستمعها منه أولا بأول.
بدأ فصل الربيع , وحددت مع إسماعيل موعدا تقريبيا للسفر مع بداية الصيف , وحتى ذلك الوقت كان علينا أن نبحث عدة مشاكل منها توفير مبالغ لشراء أسلحة لنا ( كما فعلنا في رحلة بيروت ) . في المرة السابقة لم نكن مضطرين لشراء السلاح فقد كان متوفرا بكثرة لدى فتح . أما هؤلاء فأسلحتهم قليلة وقديمة , وطبقا لما أفادنا به الوفد الأفغاني فإن الأسلحة متوفرة في أسواق المنطقة القبلية في باكستان وهي ملاصقة للحدود الأفغانية.
المشكلة الثانية هي ضرورة انضمام أشخاص جدد إلينا فلا تبقى "القضية" جامدة ومحصورة في شخصين فقط .
المشكلة الثالثة حاجتنا إلى دليل يعبر بنا باكستان ويوصلنا إلى مكان المجاهدين.
بالنسبة للمشكلة الأولى كنا سويا نعاني من أزمة مالية نتيجة لمشاكل في العمل واجهتنا بعد العودة من لبنان . أما المشكلة الثانية فكان أقرب الناس إلينا هما شابان من مصر "بدوي" و "جمال" وكلاهما مرتبط عائليا بالذهاب إلى مصر مع الأسرة في الإجازة الصيفية.
ومن المصادفات السعيدة تلك الليلة التي قابلت فيها ذلك الشاب الصعيدي "أحمد المنياوي" في منزل صديقي "أمين نار" . كان بينهما صداقة متينة وجمعتهما الجذور "الإخوانية" القديمة في عائلتيهما . فأحمد هو ابن الحاج حسني المنياوي المجاهد القديم في فلسطين والعضو السابق في القسم الخاص بالإخوان , وأمين من عائلة إخوانية متأصلة , خاله الشيخ عبد البديع صقر , وعمه "أحمد نار" من العسكريين البارزين في إخوان 1948 ومؤلف كتاب "القتال في الإسلام" وهو اسم غريب في عالم الكتب.
اكتشفت فيما بعد الصفات التي ربطت كلا الشابين في صداقة قوية فكلاهما كريم إلى درجة غير عادية , وكلاهما ذكي ولماح , وكلاهما جسور مقدام . أما أحمد فكان له "ميزة" إضافية هي موجات الغضب التي تنتابه فجأة وعلى كل من حوله وقتها أن يختبئ خلف أقرب ساتر . ولكنه ما يلبث أن يعود إلى طبيعته ويشعر بالندم ورغم تلك "الإنفجارات المنياوية" إلا أنه كان الأكثر - فيمن عرفت - شعورا بالرحمة والعدل.
شعرت أن "أحمد" يعيش نفس الحالة الشعورية للمسلم التائب العائد حديثا إلى دينه , تلك الحالة الروحانية العالية , والحماس للعمل من أجل الإسلام . وكان هذا هو الرباط الذي جمع ثلاثتنا أنا وإسماعيل وأحمد .أما صديقي أمين فكان يعيش حالة إسلامية مستقرة منذ ولادته , وقد أشرف الشيخ عبد البديع على تربيته لهذا لم تكن لديه نفس الروح المندفعة التي انتابتنا , بل حذرني من تكرار الذهاب إلى لبنان وترك عائلتي , وهددني مازحا بأنه سيمنعني بالقوة , وكان طويل القامة ضخم الجسم , ولكنه والحق يقال كان متعاطفا إلى أقصى حد مع "مغامراتي الجهادية" وكان يكثر الدعاء لي والسؤال عن أحوالي.
تحدثنا في جلستنا تلك عن مشروعاتنا , أمين كان يخطط لإصدار كتيبات صغيرة ومبسطة في أحكام العبادات , أما أحمد فكان أكثر حركية وكان يفكر في رحلة طويلة فوق جمل يطوف في بلدان آسيا يدعو إلى الإسلام , وكان

مشروعي هو الجهاد , لأن أمم الكفر تأكلنا كقصعة من ثريد , وأننا سوف نباد ونذبح كالخراف إذا لم نقاتل. بعد انتهاء الجلسة ودعنا أمين وخرجت مع أحمد سيرا على الأقدام وتحدثنا في الطريق , وعرضت عليه السفر معي للجهاد في أفغانستان . اندهش للفكرة ولكوني لم أعرض الأمر على أمين , ولكن ما هي إلا دقائق معدودة حتى وافق بحماس , وطلب مهلة شهرين أو ثلاثة حتى يستخرج جواز سفر جديد.
لم تكد الدنيا تسعنا - أنا وإسماعيل - بهذا التقدم . إن رحلتنا إلى أفغانستان قد كسبت عضوا جديدا , وبعد أن كنا اثنين فقط عند سفرنا إلى لبنان للجهاد عام 1978 فها نحن نخرج عام 1979 للجهاد في أفغانستان ونحن ثلاثة .
إن "مشروعنا" يتقدم وزاد عدد الأعضاء بنسبة خمسين في المائة مرة واحدة.
أما المشكلة الثالثة - من يرافقنا إلى أفغانستان - فقد بدأت تحل تدريجيا . فقد سافر إلى هناك "السيد أحمد" ابن "الشيخ طاهر" بصحبة وفد المجاهدين و عاد بعد عدة أسابيع محملا بمجموعة من الصور الملونة التقطها هناك , ومعه رسائل باللغة العربية من قائد المنطقة التي زارها ويدعى "جلال الدين حقاني. "
كانت الرسائل تصف الأحوال الصعبة للمجاهدين , وانتصاراتهم رغم ذلك , وتطلب العون والمدد . أما الصور فكانت تعبر بطريقتها عن نفس المعنى.
ولم أتخيل وأنا أطالع الصور أنني سترتبطني يوما ما صداقات قوية مع أصحابها , وأن كثيرا منهم سوف يستشهدون تباعا . أو أن قائدهم "جلال الدين" سترتبطني به أحداث طويلة وصداقة قوية لسنوات طويلة , وما زالت مستمرة حتى هذه اللحظة . أو أن تلك الصخور الصلدة والأشجار الخضراء التي تكسو الجبال سوف تترك بصماتها على جسدي وفي أعماق ذاكرتي . أو أن زفغانستان سوف تتحول من حلم أو أمل إلى حياة كاملة وتجربة احتوت حياتي كلها ماضيها وحاضرها ومستقبلها.
كما لم أتخيل أن تلك الوجود الصلدة التي أشاهدها في الصور أمامي سوف تغير تاريخ العالم كله . وبلا شك أنهم هم أنفسهم لم يتخيلوا ذلك على الإطلاق.
أحضر "السيد أحمد" خطة تفصيلية لمن أراد من العرب الذهاب إلى أفغانستان - وكان يعلم نوايانا في هذا الصدد - وناقشنا معه الخطة و فلم يكن لنا أحد قد زار باكستان قبلا , واتفقنا ضمنيا على أن يكون "السيد أحمد" مرافقنا في هذه الرحلة.
كان "أحمد المنياوي" يعاني ماليا هو الآخر , واستطاع مؤخرا استخراج جواز سفر , ولما اقترب موعد السفر الذي كان مقررا أن يكون مع بداية الصيف , لجأ أحمد إلى صديق له - من أبناء الأسرة الحاكمة - وشرح له ما يجري في أفغانستان , وأنه بنوي الذهاب إلى هناك "للمساعدة" والجهاد . فحصل منه على تبرع "صغير" كان كافيا أن نضعه في بند "التسليح" واتفقنا على أن نترك هذه الأسلحة التي سوف نشتريها بعد عودتنا حتى يستخدمها المجاهدون.
انتهت جميع المشاكل وتم تحديد يوم السفر بدقة وذهبنا لإخطار "السيد أحمد" - مرافقنا في الرحلة - ولكن وجدنا مفاجأة في انتظارنا , لقد قرر الشيخ الكبير "السيد محمد طاهر" أن يصاحبنا بنفسه بدلا عن ولده الشاب ذو الخبرة في الطريق , وقال الشيخ بإصرار :؛ إنني أيضا أريد الجهاد « . وأسقط في يدنا. !!
غمرتني رحلتنا الأولى إلى باكستان بالدهشة , فلأول مرة أسافر إلى خارج البلاد العربية , وصديقاي أحمد وإسماعيل لم يكونا أقل دهشة و لكن رحلاتنا العديدة إلى أوروبا جعلت دهشتهم مشوبة بالإستهجان , أما مرافقنا الشيخ طاهر فلا يكف لحظة عن تلاوة القرآن والتسبيح إلا في الحالات التي يغلبه فيها النوم.
كثير من معالم الرحلة الأولى لم يكن حدثا عابرا , بل كانت ثوابت لم تكد تتبدل للتجربة الأفغانية.
قبل أن تصل الطائرة إلى مطار كراتشي , تعددت الإقتراحات حول الخطوات القادمة , وبحكم تقارب السن , واختلاف طريقة التفكير احتدم النقاش بين إسماعيل وأحمد وطرحت مسألة "الإمارة" وتحول النقاش إلى عناد وإصرار, واضطررت إلى التدخل وتسيير الأمور طوال الرحلة بنوع من "التفاهم الجماعي" و "التراضي الطوعي" بدون الخوض في الدروب الخطرة لموضوع "الإمارة" . وبدأت التجربة الأفغانية وانتهت وهي تعاني من مشكلة الإمارة سواء على الجانب الأفغاني أو الجانب العربي . لهذا كانت "الفوضى" هي أبرز السلبيات التي شابت تلك التجربة.
وفي صالة الجمارك انفجر الغضب المكنون في نفس "المنياوي" , وجاء الإنفجار في وجه ضابط الجمارك الذي أراد تحصيل الرسوم على كاميرا "فيديو" كانت مع أحمد . انفجر صديقنا بسيل من الشتائم المنتقاة من قاموس أزقة لندن وانهال بها على رأس الضابط المسكين وبأعلى صوت , فتوقف العمل في الصالة وتجمهر رجال

الجمارك والمسافرون وعمت الفوض وحضر مدير قسم الجمارك , الذي بادره "السيد طاهر" بجهود وساطة وبلغة فارسية لم يفهم منها الضابط حرفا واحد , لكن السمت الوقور للشيخ وقامته المهيبة ولحيته البيضاء مثل كتلة ضخمة من الثلج , أثر في المسؤول الذي أنهى المشكلة فورا وسمح لنا بالخروج بدون دفع رسوم أو حتى تفتيش أمتعة . والطريف أن أمتعة صديقنا أحمد كانت تحتوي على عدة أجهزة إرسال لاسلكي صغيرة متنقلة وكان ذلك كفيلا إذا ضبطه رجال الجمارك بأن نتحول من سياح محترمين , إلى ضيوف في قسم شرطة المطار أو حتى في سجن كراتشي.

لقد نظر العرب إلى باكستان نظرة دونية , وتصور الشباب الذي جاء من دوله الأصلية أو المهجر في أوروبا والغرب أن باكستان دولة بلا أجهزة أمن أو قانون . دفعهم ذلك إلي اقتراف كثير من التجاوزات , وإلي استبعاد أي إجراء أمني قد تقوم به حكومة باكستان ضدهم مستقبلا , فانعدم لديهم أي "شعور أمني" . وقد دفعوا ثمن كل ذلك عندما تغيرت سياسة الدولة في باكستان وقررت توجيه الضربات إلى المجاهدين العرب . كذلك فإن أجهزة الأمن المعادية - العربية والصليبية - لم تجد صعوبة تذكر في معرفة كل شيء تقريبا عن التحشدات الجهادية للشباب العرب في وسط تسوده "الفوضى" وانعدام "الحس الأمني."

خرجنا إلى شوارع كراتشي ونحن لا نصدق أننا نجونا من تلك الورطة . وشعرنا بالإعزاز للشيخ طاهر , وفضله في حل الأزمة . أوقفنا سيارة أجرة وركبنا , وأصدر الشيخ طاهر أوامره بالفارسية إلى السائق قائلا ؛مسافر خانة« وتصادف أنها هي كذلك بالضبط في اللغة الأوردية.

حاول السائق الحصول على مزيد من المعلومات لكن اختلاف اللغات حال دون ذلك , ولم نفلح نحن أيضا في انتزاع أي معلومة إضافية من "الشيخ طاهر" عن هذه "المسافر خانة" وموقعها بالنسبة لخريطة كراتشي الشاسعة الأرجاء والتي يقطنها أكثر من اثني عشر مليون من البشر , ولكن اللغة العربية لدى الشيخ أفشلت محاولاتنا وتذرعنا بالصبر على أساس أنه يعلم ما يفعله.

في أعماق المدينة دخلنا أزقة ضيقة ووقف بنا السائق أمام بناية ضيقة المساحة مرتفعة البنيان وأشار بيده على أنها المسافر خانة . كانت الكهرباء مقطوعة والحر شديد و وغرف المسافر خانة تنبعث منها أضواء خافتة لمصابيح الغاز , النوافذ متسعة وجلس عليها رجال أنصاف عراة - من شدة الحر - وهم يخاطبون من الطوابق المرتفعة زملاء لهم في الشارع , وباعة يتجولون . تبادلنا النظرات المندهشة , ليس لدينا شك في أن هذا المكان مشبوه , يأوي النشالين ومتعاطي المخدرات وكافة مهن العالم السفلي.

نزلنا في الشارع مع حقائبنا واندفع نحونا "درزن" من عمال المسافر خانة - وظننا لوهلة أننا تعرضنا لهجوم مباغت - أمسكوا بالحقائب وجذبونا من أيدينا نحو "الفندق" ولكننا تسمرنا بالأرض , ورجوناهم الهدوء , ولكن صديقنا أحمد أنقذنا بواحدة من انفجاراته الصعيدية , فبهت الرعاع وتوقفوا . وتحلقنا حول الشيخ طاهر نسأله إذا كان هذا هو المسافر خانة الذي يعنيه , فقال أنه لا يعرف . كدنا أن نفقد عقولنا . نحن الآن في وسط هذه التهلكة ويقول لا أعرف . والأدهى أننا فهمنا منه بصعوبة بأنه لم يحضر قبلا إلى كراتشي أو أي مكان آخر في باكستان.

كدنا نسقط من هول المفاجأة ... كيف سيقودنا إذن إلى أفغانستان ? وماذا سنفعل. ?

عثرنا على سيارة أجرة , وانتزعنا أنفسنا وحقائبنا من بين الرعاع وطلبنا من السائق الإنطلاق بسرعة.

عثرنا أخيرا على فندق معقول , وفي الصباح بدأنا في استجواب الشيخ عن خطته في الرحلة بعد اكتشاف ليلة أمس الذي روعنا , بأنه لم يأت قبلا إلى هنا . أخرج الشيخ من جيبه ورقة صغيرة في حجم نصف الكف , بها عنوان في مدينة بيشاور لأحد الدكاكين من منطقة "بارة" وهذا كل شيء . شعرنا بالعرق البارد يتصبب من أجسامنا وتركنا الشيخ في الفندق وخرجنا نتجول في الشوادع لنتدارس الأمر , وأيضا خوفا من أن ينفجر صديقنا "المنياوي" في وجه شيخنا الوقور.

لقد واجه الشباب العرب - في السنوات التالية - مواقف أشد غرابة وأكثر خطورة , بسبب القفز في الظلام إلى المجهول . وكثير من تلك القصص انتهى بمآسي وكثير منها يصلح للفكاهة . فبعد حادثتنا بخمس سنوات تقريبا ذهب شاب عربي إلى السفارة الأفغانية في إسلام آباد طالبا تأشيرة دخول إلى أفغانستان , ولما سأله القنصل عن سبب الزيارة رد عليه الشاب في براءة ؛ أنا ذاهب للجهاد « . فثار القنصل وأمر رجال الأمن في السفارة بطرده شر طردة.

شاب آخر وصل إلى بيشاور وطلب من سائق عربة "الركشا" أن يوصله إلى أفغاستان , فأخذه إلى موقف باصات في المدينة يأخذ الأفغان يوميا عبر ممر خيبر إلى أفغانستان حتى العاصمة كابل , ونادرا ما تطلب نقطة الحدود على الطرفين إبراز الهويات من الركاب . وصل صديقنا إلى كابل وقد ظن الجميع أنه من سكانها فقد كان غير ملتح ويرتدي الزي الأروبي . هبط في محطة الباص في كابل ينظر حوله وإذا الدبابات والعربات المكدسة بالجنود تملأ الطرق وتندفع في كل اتجاه . وقف محملقا لا يدري ما يفعل حتى تقدم منه شيخ أفغاني وقور - كان يرافقه في رحلة الباص - وسأله بالأفغانية فأجاب الشاب بالعربية , ولحسن حظه أن الشيخ يعرفها . فسأله الشيخ عن وجهته فأجاب الشاب ببراءة :؛ أريد المجاهدين فقد جئت للجهاد « . امتقع وجه الشيخ وكاد يسقط من هول الصدمة والتفت حوله من الذعر , وسحب الشاب من ذراعه وأخذه بعيدا , واستضافه في بيته إلى الصباح وشرح له أن كابل هي عاصمة البلاد ويحكمها الشيوعيون والروس وأن عليه أن يغادرها عند الفجر ويعود من حيث أتى . وبمعجزة نجى الشاب من هذا المأزق وعاد إلى بيشاور

ركبنا الطائرة إلى بيشاور , كانت مهمتنا الوصول إلى ذلك الدكان في "سوق بارة" . وتدور في أذهاننا احتمالات مبهمة , ماذا لو كان الدكان مغلقا إلى أجل غير مسمى , أو أن صاحبه مسافر أو أصيب في حادث ؟ . من هو صاحب الدكان وما صلته بالمجاهدين وكيف سيأخذنا إلى هناك ؟ ماذا سنفعل لو سألتنا الشرطة عن سبب وجودنا في بيشاور وماذا نفعل في "بارة" والبلدة كلها كما علمنا مشهورة بتهريب المخدرات والأسلحة ؟

بينما نحن واجمون , كان يجلس في الصف المقابل لنا في الطائرة عدد من الشباب الأوروبي مع رجل عجوز وزوجته وكلهم في حالة من المرح والإنبساط . سألني أحمد عما يمكن أن يفعله هؤلاء في بيشاور , فأجبته بأنه النشاط الغربي العادي في بلاد المسلمين : التجسس والتخريب . شعرت بالغضب والتحفز في ملامحه وخشيت أن يفتعل معركة معهم , فنصحته بالهدوء . ولما شرع الركاب في مغادرة الطائرة لم يتمالك صديقنا نفسه من أن يتوجه إلى أحد الشباب الغربي ويسأله بإنجليزية طلقة عما ينوي فعله في بيشاور . نظر الشاب بتعالى وأجابه باستخفاف :؛ أنوي صيد السمك « . كانت هيئته وإجابته غنية بالدلالات.

لم نكن ندري وقتها أن الغرب سبقنا إلى هنا بعشرات السنين , وأن التوجيه الحقيقي للأحداث هنا هو في أيديهم ولكن عبر أيادي - وطنية - كما هي الحال في بلادنا.

لقد كان الغرب في بيشاور يصطاد , لقد اصطادوا الروس بواسطتنا - نحن المسلمين - ثم اصطادونا نحن بواسطة السلطات الباكستانية عندما انتهت فائدتنا بالنسبة لهم.

كانت الهيئة المتعالية والرد المتعجرف للشاب الغربي تلخيصا بليغا للوضع القائم , بل لتجربتنا المريرة في أفغانستان من أواخر السبعينات حتى أوائل التسعينات.

كانت مهمتنا في "بارة" أسهل مما توقعنا , اصطحبنا صاحب الدكان إلى قرية صغيرة بين المزارع الواقعة خلف شارع "بارة" , وأدخلونا غرفة صغيرة في بيت طينى متواضع , وتعرفنا هناك على شخصيات كان لها دور كبير في أحداث السنوات التالية , مثل حاجي "دين محمد" الذي كان يشغل منصب نائب "مولوي محمد يونس خالص" قائد حزب إسلامي أفغانستان . وفي وقت لاحق صار "دين محمد" هو الموجه الحقيقي للحزب . وتعرفنا على أخيه "حاجي عبد القدير" الذي شغل منصب والي "جلال آباد" بعد "الفتح" وسقوط النظام الشيوعي.

أحضر لنا "حاجي دين محمد" ملابس أفغانية لي ولأصدقائي , وتحركت بنا سيارة خاصة صغيرة في اتجاه مدينة "ميرانشاه" الحدودية في طريق يستغرق حوالي ست ساعات . كنا سبعة محشورين داخل السيارة الصغيرة , وكان من المفروض علينا - العرب الثلاثة - ألا نتكلم إلا داخل السيارة وهي تتحرك . أما عندما نقف في الطريق لأي سبب فلا كلام ولا حديث.

"قاري محمود" أحد الذين تعرفنا عليهم في الحجرة الطينية في "بارة" وقد اتجه إلى ميرانشاه في أحد الباصات العامة كي يقابلنا هناك ويصاحبنا إلى الداخل كدليل ومترجم . "قاري محمود" طالب علم أفغاني ولكنه ذو طابع أزهري واضح , فهو يحب النكتة , ذكي ومراوغ.

حدثنا عن أساتذة له من الأزهر , تلقى منهم العلم في مدرسة "نجم المدارس" في "جلال آباد" , يروي عنهم أن أحدهم كان أزهريا "فاسدا" تسير بناته في شوارع المدينة بأزياء فاضحة "مثل الشيوعيين" . أما الآخر واسمه "الشيخ المحلاوي" فكان رجلا صالحا ويظن أنه من الإخوان المسلمين , حضر إليهم للدرس يوم وقوع الإنقلاب

الشيوعي فوجد الطلاب في انتظاره لتلقي الدرس فألقى فيهم موعظة صغيرة وبليغة , فقال لهم :؛ لقد جاءكم ابن الكلب كما جاءنا ابن الكلب فماذا تفعلون هنا ؟ اخرجوا إلى الشوارع.»
وبالفعل بدأ طلاب نجم المدارس مظاهراتهم ضد النظام الشيوعي ومنذ ذلك اليوم لم تفتح المدرسة أبوابها ( بعد فتح جلال آباد وجدت المدرسة مدمرة تماما ... حتى أحجارها اختفى معظمها . وقد وضع "مولوي خالص" بنفسه حجر الأساس لبناء جديد للمدرسة. (
ما أن وصلنا ميرانشاه حتى أدخلونا أحد بيوت "المهاجرين" الأفغان" , وكان فارغا من السكان ومجهزا لنا . ونصحونا بالحيطة لأن المساكن المجاورة هي "للمليشيات الحكومية" , والبناء الضخم المقابل هو مقر الحاكم . ومن المحظور تواجد الأجانب في هذه البلدة الحدودية . والمهاجرون هنا , هم مجموعة من المجاهدين القدماء الذين فروا من أفغانستان إثر محاولات فاشلة لمقاومة حكم داوود العلماني المتحالف مع حزب "بارشام" الشيوعي.
أعجبنا الجو القروي للمنطقة , والمسجد المتواضع أمام البيوت وسط ساحة واسعة , وفي مقابله بركة يصلها الماء عبر جدول صغير , تستخدم للوضوء , مع أن الماء فيها ممزوج بالضفادع بحيث يصعب تجنب اغتراف الضفادع مع الماء خاصة في وقت العتمة.
وكان أكثر الناس ترحيبا بنا وفرحا بقدومنا هو شيخ المسجد وهو رجل ضرير , وسيم الملامح ممتلئ الجسم حسن الصوت بارع في تلاوة القرآن . ولديه عدد من الأطفال يدرسون القرآن في المسجد . كان الجميع ينادونه "قاري سيب" - أي السيد القارئ - . قال لنا هذا القاري كلمة لا أنساها إلى الآن , قال :؛ لقد جئتم إلينا تطبيقا للآية الكريمة : " وإن استنصروكم من الدين فعليكم النصر " « . وما زال "قاري سيب" كلما قابلني حتى الآن يسألني :؛ كيف حال رفقائك أحمد وإسماعيل ?« . كنا بالنسبة لهم مثل كائنات هبطت عليهم من الفضاء ... وكانت دهشتهم لا توصف أن يأتي إليهم عرب. !!
كانت الدهشة والروحانيات العالية هي سمات رحلتنا الأولى سواء بالنسبة لنا أو بالنسبة للأفغان .وفي داخل أفغانستان كانت مظاهر الحفاوة عجيبة , خاصة من سكان القرى. فما أن وطأت أقدامنا أرض أفغانستان حتى طار الخبر بسرعة كبيرة, كانت بعض القرى مدمرة وخالية تماما من السكان, وبعض القرى سليمة أو أن الدمار فيها قليل . القرى التي علمت بأمرنا خرجت لاس□تقبالنا عن بكرة أبيها . بعضهم استقبلنا على بعد مئات من الأمتار من القرية . وكان أكثر ما أحرجنا هم هؤلاء المرضى أو المصابين الذين طلبوا منا أن نرقيهم طلبا للشفاء . وخرج الناس بأطفالهم المرضى يطلبون منا أن نقرأ عليهم شيئا من القرآن . في البداية رفضت بشدة , ولكن مرافقنا الأفغاني ألح بشدة قائلا بأن ذلك سوف يحزنهم كثيرا.
كنت أشعر بالخجل , فهؤلاء المساكين يحسبوننا من أولياء الله الصالحين , بينما نحن على حالة مذرية من ضعف في الدين وقلة في العمل . كنا نراهم أفضل منا حالا بما لا يقارن , لقد تحدوا حكومة كافرة مزورة بجيش قوي حديث وتدعمها قوة عظمى . بينما نحن العرب قد فرطنا في الدين والأرض , ووقفنا نرتجف أمام حكومات من القش . ورغم ردتها الفاضحة فقد أكسبها "علماؤنا" صفة الشرعية وأكسبتها قطاعات العمل الإسلامي الكبرى صفة "أولياء الأمر" . كنا نرى في القروي والراعي والحطاب الأفغاني أكثر علما وأكثر "حركية" من علمائنا وأبناء "حركتنا الإسلامية" وجهابذتها .
ومن بين كل حالات الترحاب التي لا تحصى ما زلت أذكر ذلك الشيخ الهرم , كان بدويا مهيب القامة ذو لحية ضخمة - لم تكن لحى أنيقة كالتي ذهبنا بها إليهم - قابلناه في أحد الشعاب ونحن نشرب الماء وقد أعيانا المسير وقت الظهيرة , كنت مع صديقي أحمد وأحد المجاهدين . علم الشيخ أننا عرب فهجم علينا يحتضننا . أخذني بين ذراعيه بقوة حتى شعرت بعظامي تتداخل , وكان يبكي بحرقة ويتمتم بكلمات فهمت منها "رسول الله ... الصحابة الكرام ... الكعبة المشرفة " . ولولا الآلام في عظامي لبكيت معه , وكان في بكائه ينتحب ويتشمم ملابسي ورأسي بعمق وكأنه يريد أن تلتصق تلك الرائحة في جدران صدره . وكأنه يجد فيها عبق هؤلاء الصحابة الكرام . كم كنت خجلا من نفسي وقتها !! أصر الشيخ على دعوتنا على الطعام وصعدنا الجبل إلى بيته الصغير . وأخبر الشيخ زوجته العجوز بالخبر المذهل : لدينا ضيوف من العرب . كادت هي الأخرى أن تطير من الفرح وأمطرت مرافقنا الأفغاني بوابل من الأسئلة فعلمت أننا قدمنا للجهاد في أفغانستان . لم تكد تصدق ما تسمع . وذهبت مسرعة لتصنع لنا طعاما : فطيرة ساخنة تسبح في السمن مع طبق من الشهد . واعتذرا هي وزوجها كثيرا عن أن طعامهما غير مناسب , وأننا نريد الذهاب بسرعة ولولا ذلك لذبحا لنا شاة.

خرجنا متأثرين بتلك الحفاوة الصادقة وذلك الكرم العجيب . كنا متفقين أنا وأحمد أن هؤلاء البسطاء في الجبال هم أفضل منا بكثير وأن إسلامهم أكثر صدقا من إسلامنا - نحن العرب. -
مشينا عدة مئات من الأمتار , وقلت لصديق : ؛ إنني أعجب من هذا الشيخ كيف استطاع أن يتشمم أجسادنا بهذه القوة , بينما رائحتنا لا تطاق من كثرة العرق والأوساخ التي عليها. »
بعد لقاءنا مع هذا الشيخ صرت لا أستغرب من الكرم الأفغاني ولا أتوقع له حدودا . حتى عندما قال أحد سكان الجبال وهو يودعنا , وهو يعتذر كالعادة بأن طعامه ما كان مناسبا وأنه لو كان يعلم بقدومنا "الذبح لنا أحد أولاده " , صدقت ما قاله ولم أستبعده بالمرة . وحمدت الله - في سري - أنه لم يعلم بقدومنا , فربما كان فعلها مع علمه بأننا لسنا من آكلي لحوم البشر.
كنا قد تركنا "السيد محمد طاهر" في ميرانشاه بعد أن اجتمع عليه القوم يقنعونه بعدم المسير , نظرا لمشقة الطريق وخطورته . كان الشيخ المسكين يبكي ويقول أريد أن أشم دخان المعارك حتى أنجو من عذاب النار . فأبكى الحاضرين واقتنع بصعوبة بالغة بالبقاء , ثم ودعنا باكيا وقال سأنتظركم هنا ... لن أبرح مكاني حتى تعودوا .
كنا نستبعد أن نراه مرة أخرى . فقد كنا نرجو الشهادة ونتوقعها . كنا نسير في نشاط وسرور , أو تعب ومشقة , ولكن كنا نشعر دوما أن أجسادنا فقط هي التي تتحرك على الأرض أما أرواحنا فهي معلقة بين السماء والأرض في انتظار الإنطلاق المبارك نحو جنات الخلد ... ولكن ذلك للأسف لم يحدث حتى الآن , ورغم مرور أربعة عشر عاما . انقضى فيها الجهاد ولم نفز بما نريد.

الفصل الثالث

الرحلة الأولى

لقاء مع الجهاد

كانت مهمتها نحن الثلاثة - مهمة إعلامية - من أحد جوانبها . كنا نريد أن نعلم ماذا يحدث في أفغانستان , وأن نبلغ ذلك للمسلمين - والعرب خاصة - . وكنا نرى أن قضية أفغانستان هي قضية إسلام وشعب يجاهد , فلا بد أن يتواجد المسلمون بأنفسهم وخاصة العرب وبشكل مباشر في أرض الجهاد وأن يبلغوا الأمة من خلفهم بما يحدث ويحشدوا الطاقات اللازمة لتلك المعركة . وفي هذه المرة فإن "الراية" واضحة ولا مجال للإعتراضات التي ظهرت في الحالة اللبنانية / الفلسطينية.
كانت الأوهام قد وصلت بي وبصديقي إسماعيل إلى أن نعتقد بأن أفغانستان قد تشهد ميلاد قوة إسلامية جهادية متحركة تستطيع أن تقاتل حيث تستدعي الحاجة في بلاد المسلمين . وأننا يجب أن نحاول إنشاء هذه القوة .أما أحمد فلم يكن يرى فيها أكثر من فرصة لفعل الخيرات على قدر طاقة كل مسلم لمساعدة الجهاد والمجاهدين والمشاركة بالمال والنفس .
كان التفاوت في الرؤية والأحلام واسعا , وكذلك تفاوتت قدراتنا على المسير في هذا الدرب الشائك , كنت أكثر الثلاثة تخيلا لمدى الصعوبات المرتقبة , ولكن ما رأيته لاحقا في اسنوات التالية فاق كل ما توقعته.
حاولنا في البداية تدعيم قدرتنا الإعلامية . كان أحمد أكثرنا عملية في تفكيره وتصرفاته , وكنت وإسماعيل أكثر جنوحا للأحلام البعيدة - أو المشاريع الطويلة المدى - لهذا كان أحمد أكثر فائدة في مساعدة المجاهدين بشكل مباشر بينما تخلى إسماعيل عن هذا الطريق كلية بعد عامين أو ثلاثة .
استمر أحمد في تقديم ما يمكن تقديمه عمليا وبشكل عقلاني جاد وموزون . بينما بقيت أنا بشيء من طريقة أحمد العملية وبكثير من الأحلام الكبيرة , حتى انتهى الجهاد , وتحولت إلى مطارد ثم بقيت بين الجبال أمارس عملا إعلاميا - مستقبليا - بكتابة هذه الوريقات.
استطاع أحمد أن يوفر كاميرا فيديو وكاميرا تصوير عادية وكذلك ثلاث سترات عسكرية أرسلها له أخوه الذي يعيش في لندن وكذلك بعض المال لشراء ثلاث بنادق لتسليحنا الشخصي والجهاد . وبالنسبة للعمل الإعلامي فوجئت به وهو يعلمني بأتفاقه مع جار له يعمل محررا في "جريدة الإتحاد" - وهي جريدة حكومية واسعة الإنتشار - كي يصحبنا هذا الجار في رحلتنا إلى أفغانستان . هذا الصحفي والده عالم مشهور يحظى باحترام واسع (1.)

اعتبرت ذلك مكسبا هائلا لرحلتنا والهدف منها . فإذا تمكنا من كسب تغطية صحفية من هذه الصحيفة الكبيرة فسوف تكون هذ الأولى من نوعها - عربيا وإسلاميا - وسوف يفيد ذلك إخواننا المجاهدين في كسب العون والتأييد لهم خاصة في منطقة الخليج الغنية - والتي تشهد كما نرى ازدهارا وإقبالا على الإسلام.

بعد عودتي من لبنان تركت نهائيا العمل الهندسي وتحولت إلى العمل الصحفي . وكنت قد حاولت احترافه مرتين قبل ذلك ولكن بعد الرحلة اللبنانية استقر رأيس على اعتبار العمل الصحفي هو الأنسب ممارسته في ظل مشاريعي المستقبلية . فالكتابة والتصوير أعمال ممكنة مع الجهاد , الذي هو عمل يدور في مناطق هامة إخباريا.وعملت في صحيفة عديمة الإنتشار هي صحيفة الفجر وقضيت بها عدة سنوات كانت هي الأجمل في حياتي العملية . لم أرغب يوما في ترك العمل بها حتى ولو من أجل راتب أفضل , والسبب هو تلك الروح الطيبة من الصداقة والزمالة مع العاملين بها في كافة الأقسام - خاصة قسم سكرتارية التحرير الذي كنت أعمل به ويرأسه صديق قديم طيب القلب. -

نتيجة لذلك فقد كنت أحصل على مدة الإجازة التي تناسبني عند سفري إلى أفغانستان وبدون أية مضايقات إدارية من جانب الجريدة . وفي نفس الوقت كانت المادة الصحفية التي أكتبها أرسلها إلى جريدة الإتحاد كي تنشر بدون وضع الإسم عليها - لكوني أعمل في جريدة منافسة. - !!

كنت أفضل أن أكتب عن أفغانستان لجريدة الإتحاد واسعة الإنتشار حتى نحصل على الهدف المنشود من إيقاظ الرأي العام وحشره لمساعدة المجاهدين الأفغان . ولقد نجحنا في ذلك إلى درجة معقولة . وقد أوصلني هذا الطريق إلى مصائب ومخاطر لم تكن في الحسبان ... كما سنذكر خلال هذا الكتاب.

عندما قررنا السفر اعتذر صديقنا الصحفي . فقررت أن أكون أنا صحفي الرحلة , مع خشيتي ألا تنشر "الإتحاد" ما أرسله إليها من مواد لكوني لا أعمل في نفس الصحيفة . ولكن "الإتحاد" ولسنوات طويلة ظلت ترحب بكتاباتي . وحتى انتهت علاقتي بالجريدة نهائيا عام 1990 فإن معظم ما كتبته لهم قد نشر باستثناء مقال كتبته عن وضع الأحزاب الأفغانية , وكان بمناسبة صورة شهيرة للرئيس الأمريكي "رونالد ريجان" وهو يحتضن - بعطف وحنان - حسناء أفغانية أسموها "ناهد مجددي."

مرة أخرى امتنعوا عن نشر تحقيق صحفي كنت قد كتبته عن معركة "جاور" عام 1986 , وكنت وقتها في قمة التألق "الوظيفي" كمدير لمكتب جريدة الإتحاد في إسلام آباد . ولم أدرك وقتها أن دولة الإمارات على وشك اتخاذ "خطوة رائدة" بإعادة العلاقات الديبلوماسية مع السوفييت . وإن إغلاق مكتبنا في إسلام آباد , كان عربونا بسيطا ضمن تلك الصفقة . أما حذف بعض المقاطع من المقالات فكان يتم في مرات قليلة فقط . وقد نعود مرة أخرى للحديث عن هذه التجربة الصحفية , ولكنها بدأت على أية حال منذ دخولنا أول مركز للمجاهدين قابلناه في رحلتنا الأولى.

وسط غابات الصنوبر الشاهقة في منطقة "أورجون" كانت فقرتنا الأساسية الأولى في الرحلة وهي زيارة مركز القومندان "مطيع الله" (1) . أرسل القائد وفود استقبال قابلتنا على مسيرة نصف يوم من المركز . المجموعة الأولى من المستقبلين كان معهم "جمل" كي يحملنا عليه - وكأنه توقع عدم قدرتنا على المسير كل هذه المسافة - رفضنا بإصرار - إظهارا للعزيمة وطمعا في الثواب - فكاد صاحب البعير أن يبكي , وقال أن "مطيع الله" سيحزن كثيرا لذلك . فتطوعت لأداء المهمة كنوع من المجاملة ولكنني ندمت على ذلك وقت لا يجدي الندم . فما أن اقتربنا من قمة الجبل حتى أخذ الطريق الترابي في الإنكماش وتزايدت أغصان الصنوبر التي تعترض مسيري وأنا فوق القمة السامعة للبعير الشاب . تلقيت عدة ضربات كادت تطيح بي إلى الوادي السحيق إلى اليمين , أما الجانب الأيسر فهو مغلق تقريبا بسفح الجبل والأشجار النافذة منه بتحد . وأخيرا اعترضني غصن على ارتفاع سنام الجمل تماما . فاضطررت وقتها بالإستنجاد, بصاحب الجمل الذي أوقفه في اللحظة المناسبة , وكانت فرصتي حيث انزلقت على الجانب الأيسر للجمل , وأصررت على مشاركة إخواني ثواب السير على الأقدام

هبطنا الجبل وأخبرونا - كالعادة - أن المركز قريب . توقفت للوضوء وسبقني الركب بمسافة طويلة نوعا ما . وعندما تحركت إليهم شاهدت شاحنتين ضخمتين وتجمهرا وحركة حولها . توقعت أن يكون الركب قد وقع في كمين حكومي . لم يكن معي سلاح والمنطقة مجهولة تماما بالنسبة لي . لم أشاهد أي دلائل على اضطراب كما يقتضي موقف الكمين , حتى لو كان إخواننا استسلموا , وهذا مستبعد فبعضهم مسلح . وأخيرا اكتشفت أن

الشاحنتين قد جاءتا لاستقبالنا مع لجنة استقبال جديدة , وأن الشاحنتين هما من الغنائم الحديثة للمجاهدين في معركة تمت منذ أيام فقط في منطقة قريبة منا.
لأول مرة نشاهد الغنائم , وكنا مندهشين وانفعالاتنا لا توصف . كنا نقرأ عن الغنائم في الكتب التاريخية , أيام الغزوات والأيام الزاهرة للمسلمين . درنا حول الشاحنتين , وكانتا في حالة ممتازة والتقطنا لها صورا كثيرة - من شدة الفرح - منها بعض الصور للشعار الشيوعي على أبوابها الجانبية , كان شعارا باللون الأحمر - شعار النظام الشيوعي - ويمثل سنبلتين وبينها كلمة "خلق" أي الشعب - كانت الكلمة كريهة لدى الجميع , وقعها ينذر بالخطر والعداء القاسي.
فقد سمعنا قصصا عن انهار الدماء التي أراقها حزب "خلق" المسيطر على البلاد . وسمعنا شعاراته المليئة بالغطرسة والتحدي " الحكم الأبدي لحزب خلق الذي لا يزول !! " , وتحقيره العلني والإستفزازي للإسلام كدين وللعلماء وطلاب العلم كأعداء للثورة.
ركبنا إحدى الشاحنتين ونحن لا نكاد نشعر بأنفسنا من فرط السعادة وركب باقي المجاهدين في الصندوق الخلفي وركبت مع زميلاي إلى جانب السائق العجوز الذي لا يمكن أن أنساه . كان جبليا بكل ما في الكلمة من معنى , قوي الجسم تجاوز الخمسين , فاختلط شعر لحيته الصخمة بالكثير من الشيب . سار بنا في طريق بالكاد يصلح للماعز أو الإبل , فتعرضت السيارة لرجات قوية وكأنها قذائف مدفعية قد أصابتها . وفي كل مرة يضحك من أعماق قلبه ويصيح على إخوانه في الخلف قائلا :؛ أوه مجاهدينو . »
كان وجهه الطيب يطفح بشرا وسعادة طفولية وكأن هذه الصعاب ليست سوى نكات مرحة . كنا نضحك لضحكاته . لم ندرك مدى معاناة إخواننا في الخلف سوى في اليوم التالي حينما شاركناهم في الجلوس داخل الصندوق , وكم ندمنا على ذلك , ولكن صديقنا أحمد لم يندم ولكنه انفجر بطريقته الصعيدية ونزل من السيارة غاضبا , وسبب لنا إحراجا شديدا , أما مضيفنا مطيع الله فكاد يذوب خجلا واصطحبه معه في المقعد الأمامي إلى جانب سائقنا العجوز الذي توقف على الصياح خوفا من انفجار الصديق الغاضب.
وصلنا إلى مركز مطيع الله للمرة الأولى بعد صلاة المغرب وفي العتمة شاهدنا صفين طويلين من رجال الجبال المجاهدين ونحن نمر بينهم في شعب ضيق جدا بين الجبال حتى أن بعضهم تسلق جوانب الجبل حتى يفسح لنا الطريق وما كدنا نتوسط الصفين حتى انطلق شلال من النيران بعضه آلي , وكان الصوت مضخما في ذلك المكان الضيق . أصابنا بالذهول لبرهة قصيرة , وقفز إلى ذهني ذلك المأزق التاريخي للمماليك في مذبحة القلعة الشهيرة في مصر.
استقبلنا مطيع الله بالعناق الحار وطلب من رجاله وقف إطلاق النار فوصل الأمر إليهم بصعوبة وسط صجيج النيران.
كانت ليلتنا الأولى بين المجاهدين لا تنسى . صلينا معهم العشاء خلف قائدهم مطيع الله . كان محبوبا ومطاعا من الجميع , هكذا شعرنا من خلال التعامل الدائر في المعسكر . وكان نشطا بشكل ملحوظ , حاد النظرات ذو صوت مبحوح خفيض . ملامحه تنطق بالذكاء والحيوية . تحلقنا حول طعام العشاء المكون كالعادة من الشاي الأخضر والخبز اليابس , وذلك الشيء السكري المدعو "جر" وهو كتل يابسة من عسل القصب أن البنجر . كان ذلك الطعام يصيبني دائما بحالة من الهبوط المعنوي . ولم آكله قط إلا تفاديا للهلاك جوعا.
ولم يكن الحال كذلك بالنسبة للمجاهدين , فقد كانوا يقبلون عليه بشوق كما كنا نقبل قديما في مصر على أكل الفول المدمس.
كان لدى مطيع الله أخبارا سارة لنا , فمنذ أيام قليلة استطاع رجاله تحطيم قوة للعدو حاولت الهجوم على مراكزهم في عمق الجبال , وغنموا منها الكثير من الأسلحة والذخائر وعدد من الشاحنات الجديدة ومنها تلك التي ركبناها اليوم إضافة إلى عدد من أجهزة اللاسلكي ورشاشات ثقيلة.
كان من بين المجاهدين بعض الجنود وضباط الصف الذين فروا من الجيش والتحقوا بالمجاهدين وجميعهم من الناطقين باللغة الفارسية التي يعرفها قليلون فقط من سكان تلك المناطق من البشتون.
كان في المركز مدفعين من عيار 76 مليمتر جبلي كلاهما بدون أجهزة تصويب . في الصباح أطلق لنا مطيع الله قذيفة واحدة كتجربة , على أحد الجبال البعيدة . وكان التصويب يعتمد فقط على "التخمين" حاولوا النظر من خلال ماسورة المدفع ولكن أحدا لم يشاهد سوى السماء الزرقاء . ولأول مرة نشاهد إطلاقا قريبا لأحد المدافع

, ولكن لسوء الحظ لم نشاهد أين سقطت القذيفة !! . وبالتخمين قدروا أنها عبرت الجبل حيث لا يوجد سوى القوات الحكومية على أية حال. !!

وفي الصباح كان هناك درس في استخدام المدفع يلقيه صف ضابط انضم إلى المجاهدين حديثا . ومضينا مع مطيع الله لمشاهدة جزء من الغنائم حيث ما زالوا يجمعونها تمهيدا للتقسيم . كانت خيمتان قد كدستا بأنواع الأسلحة والذخائر وأجهزة اللاسلكي . وما لبث أن حضر عدد من المجاهدين كل منهم بحمل قدر طاقته من بنادق الكلاشنكوف كي يضعها مع باقي الغنائم . كان ذلك مذهلا لنا بكل معنى الكلمة . التقطنا الكثير من الصور وإذا بهدير محرك طائرة يخترق السكون , مازالت بعيدة ولكنها تدور حول المكان , وهذا عمل غير ودي وينذر بالشر وإن كنا لم نكن ندرك مدى الشر الكامن خلف هذا الصوت فلم نحضر غارة جوية فوق رؤوسنا حتى الآن وإن كنا شاهدنا قصفا جويا لعدة قرى بعيدة عنا ونحن في الطريق إلى هنا.

انطلقت دفعة طلقات من رشاش ثقيل فوق القمة القريبة , إنه الدفاع الجوي للمجاهدين بدأ في العمل فصعدنا كي نستطلع الأمر , ونلتقط بعض الصور . الطائرة لم تهاجم موقعنا ولكنني فزت بأول لقطة لي في الرحلة وكانت ناجحة لدرجة أنها استخدمت مرات كثيرة في جريدة الإتحاد وهي تمثل مجاهدا أفغانيا في زيه التقليدي وعمامته الضخمة يجلس في ثقة خلف مدفع رشاش ثقيل مضاد للطائرات.

لاحظنا في كل مرة نستخدم فيها الكاميرا ذلك الشغف الطفولي لدى الأفغان كي يظهروا في الصور . واكتشفنا بعد ذلك أن التنافس على الظهور والزعامة سمة أخرى خطيرة في الشخصية الأفغانية . تلك الشخصية التي استغرق اكتشافها عدة سنوات - من جانبي على الأقل - حتى أدركت إلى حد ما مكوناتها الأساسية . ومع ذلك فوجئت بعد "الفتح" وسيطرة "المجاهدين" على البلاد أن هناك سمات لم أكن أدركها حتى تلك اللحظة المتأخرة .من ناحية الخلق والطباع كانت هناك الكثير من نقاط التشابه - من وجهة نظرنا - بين الأفغان والعرب القدامى وأن أبرز ما يختلفون فيه عن العرب الجدد هو رفضهم للذل وحبهم للدين وقبولهم السريع بخيار الموت إذا كانت حريتهم مهددة أو إسلامهم في خطر.

في اليوم التالي اصطحبنا مطيع الله إلى موقع المعركة الأخيرة حتى إذا ما وصلنا إلى وادي متسع نسبيا يتوسطه جدول ماء شاهدنا ثلاث مدرعات محترقة , وتقدمنا مطيع الله على حذر وطالبنا بالإحتراس من الألغام , شعرت بالعرق البارد يتصبب من جسدي . وأردت أن أسأله كيف نحترس من الألغام وإذا هو يقدم الإجابة عمليا قبل أن أتكلم , فقد كان يقفز بخفة الغزال فوق الصخور والنتوءات الحجرية وكذلك فعل باقي المجاهدين , فقلدناهم - أنا وصدقائ - بشيء من النجاح وكثير من الخوف .

كانت الألغام التي استخدموها مصنعة محليا ومكونة من عدة أصابع من الديناميت مع صاعق كهربائي وبطارية صغيرة , أما مفتاح الدائرة فهو قطعتين من الكرتون ينطبقان عند المرور فوقهما فتنفجر الشحنة . كانت تركيبة خطيرة وغير متقنة وقد يتسبب مرور كلب أو ماعز فوقها في تفجير اللغم . وعلى أية حال فقد انفجرت عدة مصفحات وكان ذلك كافيا كي تنهار معنويات القوة المهاجمة وتستسلم بعد وقت قصير من فتح النيران عليها من جانب المجاهدين.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي نعترف فيها على مشكلة الألغام التي أضحت من معضلات الحرب الأفغانية , وسوف تستمر كذلك لمدة ألف عام - حسب تقديرات الأمم المتحدة - . واختلفت التقديرات في عدد الألغام التي تخلفت في باطن الأرض بعد الحرب فهي عشرة ملايين في أحد التقديرات ومائة مليون في تقديرات أخرى. !!

إذا كان هناك شعار غير الكفر يمكن إطلاقه على نظام "طرقي" الشيوعي فهذا الشعار هو الحماقة.

كانت الحماقة هي السمة البارزة لتصرفات "طرقي" وحزبه الشيوعي "خلق" في كافة المجالات سواء في سياسته الداخلية أو سياسته العسكرية . فقد ركبهم الغرور وأفرطوا في الثقة بأنفسهم , فاستخدموا القوة بإفراط زائد فتألب الشعب ضدهم - هذا إلى جانب عدائهم العلني للإسلام - وقد ارتكبوا عسكريا مغامرات طائشة أودت بقطعات كبيرة من الجيش حتى كاد النظام أن يسقط لولا تدخل السوفييت.

ومن مظاهر تلك الحماقات الحملات العسكرية "الثقيلة" في أعماق المناطق الجبلية . فقد قام قادة طرقي العسكريين - ومعهم مجموعة م الحمقى السوفييت - بتجريد حملات كبيرة من قوات المشاة المدعومة بالدبابات والمدافع الثقيلة والطائرات النفاثة ضد قواعد المجاهدين في الأعماق الوعرة للجبال . وكانت النتائج مأساوية

على يد مجاهدين يتميزون بالإيمان والتصميم ويقاتلون بشراسة وقد أدت تلك الحملات الحمقاء إلى تزويد المجاهدين بثروات عسكرية هائلة من الأسلحة والعتاد.
كان لدى "طرقي" في ذلك الوقت خمسة آلاف خبير عسكري سوفييتي يعملون في مختلف قيادات الجيش الأفغاني حتى مستوى الفصائل . ويشاركون في توجيه وقيادة معظم الحملات ضد المجاهدين . وكان واضحا منذ بداية الحرب وحتى نهايتها - باستثناء فترات قليلة - أن السوفييت يؤمنون بعقيدة عسكرية تعتمد كليا أو إلى درجة عالية جدا بالضخامة ... ضخامة المعدات وضخامة الأعداد المستخدمة من الجنود والآليات .
لقد أثبتت الحرب الأفغانية بأن الجندي المؤمن هو السلاح الحاسم في الحرب وليست الضخامة أو التكنولوجيا .فقد خسر "النظام الشيوعي" الحرب في مجال المعنويات حينما لم يتجاوب الشعب مع الشعارات الشيوعية بل قرر مواجهتها بالسلاح ومهما كانتا النتائج المترتبة على هذا القرار.
أما القوات السوفييتية فلم تكن تبرهن طوال مدة الحرب عن معنويات عالية أو إيمان حقيقي بهدف الحرب - أي حماية نظام شيوعي صديق ضد تدخل أجنبي - لقد ماتت الشيوعية في نفوس الجنود السوفييت قبل أن يحضروا إلى أفغانستان  ثم ماتت أمام أعينهم في أفغانستان رغم كل ما فعلته دولتهم من مجهودات خارقة لإبقائها على قيد الحياة . لذلك عندما عاد هؤلاء الجنود إلى بلادهم محبطين مهزومين انهارت الشيوعية في الإتحاد السوفييتي . فالجيش الأحمر - عماد الدولة وحامي النظام - قد أيقن بأنه يحمي جسدا ميتا عفا عليه الزمن.
غادرنا مركز مطيع الله في منطقة زيروك بالأرجون . وتوجهنا حسب برنامج مضيفنا صوب مركز مولوي "جلال الدين حقاني" في "سيرانا" . قالوا لنا أنه عالم دين وقائد عسكري شجاع ومشهور كما أنه الرجل الثاني في جماعة مولوي "يونس خالص" - حزب إسلامي. -
اضطررنا للإلتفاف مسافة طويلة  في الجبال الصنوبرية للتحرك من زيروك إلى سيرانا تفاديا لمدينة "نكا" أو - "نقا" بالعربية -  وكانت حكومة "طراقي" مازالت تحتفظ فيها بحامية قوية . قبل أن نبلغ "سيرانا" بعدة كيلومترات طلبوا من البقاء إلى أن يتم إخطار حقاني المتواجد خارج "سيرانا" والمشتبك في معركة مع القوات الشيوعية.
انتظرنا يوما كاملا حتى جائنا الإذن بالتوجه لمقابلة حقاني الذي استقبلنا مع عشرين من رجاله المسلمين وسط منطقة كثيرة الأشجار في وادي بين جبلين . لم يطلقوا النيران كما حدث في معسكر مطيع الله , والأكثر من ذلك أن حقاني أمرهم بالبقاء قريبا من الأشجار بعيدا عن ضوء الشمس . كان واضحا أن الموقف متوتر وأنهم يتوقعون قصفا بالطائرات على منطقتهم في أعقاب معارك الأيام الماضية التي علمنا أنهم قد ربحوها بجدارة.
تجمهر حولنا المجاهدون بأسلحتهم القديمة وتزايد عددهم تدريجيا . طلب مني حقاني أن ألقي فيهم كلمة , وكم كان ذلك محرجا . فقد كنت أستصغر شأني إلى جانب هؤلاء الرجال كما أنني لست خطيبا . جلس الرجال على الأرض وبنادقهم في أيديهم يترقبون كلمتنا فيهم , فألقيت فيهم كلمة قصيرة أذكر أنني قلت فيها :؛ إن راية الجهاد التي رفعت في بدر قد وصلت إلى أيديكم , وهي أمانة كبيرة وشرف عظيم لكم , وأن أمة الإسلام تنظر إليكم وقد رفعتم هذه الراية بعد أن طال انتظارها أن ترفع , بل أن العالم ينظر إلى نتيجة هذه المعركة الدائرة على أرض أفغانستان بين الإسلام والشيوعية ...« . أذكر أنني انهيت الكلمة بالآية الكريمة :؛ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. »
تولى "جلال الدين حقاني" شرح الكلمة باستفاضة ثم دعانا إلى الصعود إلى بيت في أعلى التل القريب حتى نستكمل الحديث.
شرح لنا حقاني بالتفصيل الوضع في أفغانستان وفي منطقتهم - محافظة باكتيا - والوضع بين المنظمات الجهادية واحتياجات المجاهدين . وأخيرا نتائج القتال الذي دار في اليومين الماضيين حيث حققوا انتصارا كبيرا ودعانا لرؤية آثار المعركة على الطريق العام على مسافة ليست كبيرة.
ما زلت أتذكر الزيارة لموقع المعركة على الطريق الواصل بين مدينتي جارديز وخوست على مسافة ليست بعيدة كثيرا عن جارديز ( عاصمة الولاية ) ولكن تفصلها عنها سلاسل جبال "ساتي كندو" الشاهقة (1) . كان الطريق يتلوى بين القمم الجبلية . لقد وقعت القافلة المتوجهة نحو خوست في كمين قاس ... كانت آثاره المدمرة واضحة . أكثر من عشرين شاحنة احترقت تماما وجثث السائقين ومعانيهم قد تحولت إلى تماثيل بشعة من الفحم الذي تبرز منه عظام آدمية بيضاء إضافة إلى أكثر من عشر مصفحات محترقة , وقد سقطت جثث الجنود خلف مزاغل إطلاق النار وبعضهم احترق داخل المصفحة  أو على أسفلت الطريق العام . جثة أخرى لعسكري - أو

ضابط - زحف إلى خارج الطريق وأسند ظهره إلى صخرة ومات تحتها , لقد تحلل الجسد وأصبح أسودا مثل الفحم بينما انكشفت عظام الجمجمة واليدان فوق البطن وعظام الفك مفتوحة عن استغاثة يائسة . عدد آخر من المدرعات ترك الطريق العام ونزل إلى الوادي الصخري المجاور حيث يسير نهر شمل بمياة قليلة لكنها شديدة الإندفاع . فتعطلت بين الصخور وغرزت فيها العجلات والجنازير , وهكذا ضاعت عدة دبابات في الوادي أيضا . وفوق الجسر منظر غريب آخر , مصفحتان اقتحمتا الحاجز الحديدي كي تسقط في الوادي من ارتفاع ثلاثة أمتار تقريبا , وكأن السائقين فوجئوا بالكمين فقرروا الفرار بهذه الطريقة , والأغلب أنهم قتلوا . من المناظر الغريبة أيضا , إحدى ناقلات الجنود وقد اخترقت طلقة الحديد السميك المجاور لمزغل إطلاق النار فقتل الجندي وسقط فى مكانه . نظرنا إلى المكان الذي جاءت منه تلك الطلقة الغريبة , وكيف استطاعت اختراق حديد بتلك السماكة , وهذا غير ممكن إلا بطلقة - أو قذيفة - مضادة للدروع وهو الشيء الذي لا يمتلكه المجاهدون في ذلك الوقت . كان في الإتجاه المقابل للمزغل جبل صلد مرتفع لم تحدث من جهته أية عملية إطلاق لأن الكمين كله جاء من جهة واحدة عبر الوادي حيث تشرف عدة تلال متفاوتة الإرتفاع أما الجانب المقابل فهو جبل مرتفع لا يتيح للقوة أية فرصة للإختباء , فكأنها تقف أمام حائط كي يطلق عليها المجاهدون النار من الجهة المقابلة , فسحقت القوة وهي في وضع سيء.

اكتملت الصورة بكثير من الجثث التي تحللت وأصبحت أشبه بالرماد المحترق وقد تناثرت فوق الطرق وكأنها كتل بارزة من الإسفلت , وقد تجمعت الكلاب حولها تنهش منها ما تشاء , بينما جلست كلاب أخرى متكاسلة على جانبي الطريق وقد أصابتها التخمة . وفي وسط هذه اللوحة المأساوية وجدت كتابا ضخما وقد تلوثت صفحاته المصقولة بالدماء , لقد كان ديوان شعر باللغة الروسية , مزينا برسومات رومنسية غير متقنة لضباط وجنود مع فتيات جميلات . هناك العديد من الزهور والأشجار وزجاجات الخمر والطيور . خمنت أن الديوان كله يتحدث عن ضباط وجنود ذهبوا إلى الجبهة للقتال وتركوا خلفهم الأهل والعشيقات ومتع الحياة . أضافت الدماء التي لطخت الصفحات خاتمة مأساوية لحياة إنسان فقد حياته على أرض غريبة , لقد قتل وهو يطلق النار على الأبرياء بينما يقرأ أشعارا الغزل ولوعة الفراق - كمثل نيرون الذي أحرق روما وهو يغني أشعارا - . لقد سقط الجندي الروسي - ولا ندري أين جثته وسط هذا الحشد المتفحم - , فقد حياته بلا معنى . وبعد يوم وفاته بإحدى عشر سنة تقريبا سقطت الشيوعية وانهارت دولة السوفييت فوق نفس الجبال في أفغانستان.

تصاعدت وتيرة الأحداث في المنطقة بعد معركة الطريق . وارتفعت المعنويات بشكل غير متوقع , فوصلت وفود من المجاهدين من المحافظات المجاورة خاصة "غزني" تطلب المعاونة خاصة من الأسلحة المضادة للدروع ( آر بي جي ) . كما أن القوات الحكومية في جرديز بدأت في التدمر ضد قياداتها , وفجأة وصل إحدى عشر ضابطا من رتب متوسطة فروا من الخدمة وأفادوا بأنهم كانوا يرتبون لعملية تسليم كبيرة مع قتودهم , وأوشكت الخطة أن تنجح لكن الإستخبارات الحكومية ( خاد ) تنبهت للأمر فاضطر الضباط إلى الفرار بسرعة قبل القبض عليهم وإعدامهم.

جلسنا مع الضباط وكانوا من أسلحة مختلفة . ورسموا لنا صورة عن الأوضاع داخل الجيش , وفي صفوف النظام في كابل وأوحت الصورة بأن النظام يتآكل بسرعة غير عادية . وقد كانت تلك الصورة صحيحة إلى حد كبير فما أن جاء شهر ديسمبر من نفس العام حتى اضطر السوفييت إلي إقحام الجيش الأحمر للسيطرة على البلاد ومنع انهيار الشيوعية في أرض مجاورة لهم خاصة وأن البديل سيكون هو الإسلام.

كانت الضربات التي تلقتها القوات الحكومية في أمثال ذلك الكمين على الطريق العام ( جرديز - خوست ) قد فاقمت الوضع داخل صفوف الضباط , وانقسموا بين ضباط عاديين وآخرين منتمون إلى حزب "خلق" الحاكم المدعومين بمستشارين سوفييت وهم أصحاب القرار الحقيقي داخل الجيش . أما الغارات الحمقاء التي قررها السوفييت وأتباعهم من ضباط خلق فقد انتهت بكوارث مأساوية بين جبال مناسبة تماما لتدمير الجيوش وعلى أيدي رجال تدفعهم حماسة دينية غير عادية.

ومع هذا ظهرت بين المجاهدين قضية الحاجة إلي التدريب بشكل ملموس , فغاية تدريب المجاهدين آنذاك كان البنادق القديمة وبعض الأسلحة الخفيفة التي غنموها حديثا , وما سوى ذلك كان لا بد أن يتلقوا عليه دروسا تعليمية من الجنود والضباط المنضمين إليهم . وهؤلاء العسكريون كان نادرا ما يمكث أحدهم فترات طويلة بين المجاهدين.

بالنسبة للدبابات والمصفحجات , كان المجاهدون يسلبون منها ما يمكن حمله ثم تحرق الدبابة . وعندما وصل الضباط من جرديز أرسلهم حقاني إلى الطريق لمحاولة إصلاح شيء من الدبابات المدمرة ولكنهم عادوا والأسى يغمرهم , فلم يعد هناك ما يمكن الإستفادة منه . ومع هذا فلم يمكث الضباط طويلا وغادروا إلى باكستان للعودة مرة أخرى إلى مناطقهم أن لاستدعاء أسرهم حتى لا يتعرضوا لبطش السلطات.
وكانت قصة المجاهدين مع القاذف الصاروخي المضاد للدروع ( آر بي جي ) قصة طريفة , فلم يكن لديهم أي علم بوجود مثل هذا النوع من الأسلحة أصلا . وفي أحد كمائنهم على نفس الطريق ( جرديز - خوست ) هاجموا قافلة من المشاة المنقولة بالشاحنات وخلفها عدد من المدرعات وقطع المدفعية . تشتت القافلة وفر أكثر المشاة وبقيت المدرعات والدبابات تطلق نيران أسلحتها الرشاشة والثقيلة وتجمد الموقف عند هذا الحد ولم يستطع المجاهدون جمع الغنائم أو إخلاء الجرحى والشهداء . وشاهدوا جنديا يحمل هذا السلاح العجيب فسألوه عنه فقال لهم أنه ( ضد الدبابات ) . وهكذا صار اسمه لدى المجاهدين لفترة طويلة قبل أن يتعلموا اسمه الأصلي .فطلبوا منه إطلاق النار على إحدي الدبابات ولكنه خاف أن يتقدم , واكتفى بشرح الطريقة لأحد المجاهدين الذي تناول السلاح وتقدم وأطلق قذيفته الأولى المضادة للدروع في تاريخ حياته العسكرية بل وفي تاريخ المحافظة كلها .
فطار برج الدبابة ولم يكن ذلك هو المفاجأة الوحيدة بل المفاجأة الأكبر هي أن كل أطقم الدبابات والمصفحات قد قفزوا منها رافعين أيديهم إلى الأعلى , واتضح أن خوفهم من ( الآر بي جي ) أكبر من خوف المجاهدين من الدبابات . ومنذ ذلك التاريخ دخل هذا السلاح العجيب سجل الخدمة العسكرية لدى المجاهدين . وفي الحقيقة أنهم أبدعوا في استخدامه طوال مدة الحرب واستخدموه حتى ضد طائرات الهيلوكبتر , وكان يخيف الطائرات المنخفضة.
واكتشفنا متأخرين - بعد نهاية الحرب (!!) - أن المجاهدين كانوا يرفضون استخدام منظار التصويب الخاص بهذا السلاح . كنا نظن في البداية أنهم لا يمتلكونه , وفي الواقع أن هذا المنظار يقفز كثيرا بإمكانات هذا السلاح وقيمته في المعارك وقدرته الفائقة على الإصابة . وكان بعض الأفغان يضحكون لرؤيتهم أحدا من العرب وهو يستخدم هذا المنظار ولما سألناهم عن السبب قالوا أن المنظار هو فقط لضعاف البصر (!!) . ومع البحث والإستفسار علمنا بعد سنوات أن المخابرات الباكستانية أثناء تدريبها للأفغان على قطع المدفعية كانت ترفض تدريبهم على استخدام مناظير التصويف . لذا كانت مدفعية المجاهدين في الغالب الأعم هي لمجرد التهويش والتطفيش مع وجود استثناءات محدودة في أواخر مدة الحرب . أما عن تكتيكات استخدام المدفعية فكانت متخلفة للغاية وشبه منعدمة فيما عدا ما يقدمه الضباط الباكستاييون من مشورات فنية لرجال المدفعية الأفغان - وهي مشورات ضارة أكثر منها نافعة - والهدف منها زيادة اعتماد المجاهدين على إمدادات الذخائر القادمة من باكستان وعلى المشورات الضارة لرجال الإستخبارات العسكرية الباكستانية الذين حرصوا على إبقاء الفعالية العسكرية للمجاهدين على مستوى منخفض لا يتطور حفاظا على المصالح الأميركية الباكستانية في توجيه الدفة السياسية للصراع بما يتوافق مع حدود التنافس - المحكوم بدقة - بين أمريكا والسوفييت .
كان التدريب أحد جوانب المشكلة العسكرية لدى المجاهدين طوال مدة الحرب , وكان أيضا وثيق الصلة بالجانب السياسي للقضية كلها . وفي سنوات الحرب التالية عندما ظهر العنصر العربي على مسرح الأحداث سوف نرى جوانب هذه المشكلة لديهم أيضا .
وفي هذه الأيام أتذكر كثيرا الوفد الذي قدم من ولاية غزني برئاسة ذلك المولوي الشاب , الذي يتفجر قوة وعزيمة . قابلته في تلك الأيام حال وصوله إلي مركز "سرانا" وهو مازال يلهث من صعود الجبل . سألني بعربية فصيحة :» هل أنت عربي ؟« . وعلمت منه أنهم يسكنون في مناطق ريفية مفتوحة ويعانون بشدة من الدبابات وأنه قدم يطلب المعونة من مولوي "جلال الدين" فقد علم أن لديهم "ضد الدبابة" ويريد واحدا منها على الأقل . فلما سألته عن مشكلة الطائرات , قال أنهم لا يبالون بها كثيرا , فالطائرة "الجت" - أي النفاثة - ترمي قنابلها وترحل , أما الدبابة فإن الجيش يدخل بها إلي وسط البيوت , وينتهك الحرمات ويستبيح الدماء بدون أن نملك له دفعا.
ولما سألته متعجبا من عدم خشيتهم من الطيران كانت تفسيراته أشد غرابة . فقد كان يجلس علي ظهر البيت مع أمه العجوز , وفجأة وصلت الطائرات وبدأت ترمي قنابلها فوق القرية , فلما أراد أن يجري إلى الأسفل للإحتماء من القصف وبخته أمه العجوز قائلة :» أنت مولوي تحفظ كتاب الله وتخاف من كافر ؟« . فشعر بالخجل والندم وبقي معها حتى انتهي القصف ثم نزل كي يساعد في إسعاف الجرحى ونقل جثث الشهداء .

كانت قصة الأم غريبة بالنسبة لي , ولكن أمثال تلك المواقف كانت حقيقة , من نساء ورجال وكان ذلك أحد الجوانب الخفية للأسطورة الأفغانية.
ولما سألت المولوي عن برنامجه الجهادي وما هي غايته , كانت إجابته التي ترن في أذني الآن : ؛ سنقاتل الشيوعيين حتى نفتح بخارى وسمرقند. »
بحلقت في وجهه مندهشا.. كيف تذكر هذا الجبلي تلك الأسماء التي ترقد في غياهب التاريخ الإسلامي ؟ كيف يجرؤ ؟ .. لقد نفذت كلماته في أعماقي وشعرت كأنها نبوءة قادمة لا محالة , وإن كانت فوق كل خيال وتصور !!
.
كم كانت نبوءة ذلك الشاب المولوي صادقة وأنا أرى أمامي الآن مجاهدين من بلادالطاجيك وبلاد الأوزبك يتدربون , ويقاتلون لدحر الشيوعية المتبقية في بلادهم . إن بخارى وسمرقند باتت على قاب قوسين أو أدنى.
ولكن إلى أي مدى خذلنا الأفغان ؟! وبالتحديد قياداتهم التي خانت شعبها بل خانت قضية الإسلام في الأرض .
تلك الصلابة وذلك الإقدام والتعالي الإيماني كانت دروسا لا تقدر بثمن , وكنا نحن الذين تربينا في أجواء الذل والقهر والإستخزاء أشد ما يكون حاجة إلى أن نتلقاها على أيدي هؤلاء الأساتذة.
ثم فاجأني المولوي الشاب بسؤال لم أدرك خطورته إلا بعد سنوات عدة , فقال لي : ما هو مذهبك؟
كانت مفاجأة أخرى , فلأول مرة يوجه لي هذا السؤال , وحتى تلك اللحظة لم أكن أدري تحديدا ما هو مذهبي , بل لم يكن لذلك أدنى أهمية لدي .
وتذكرت أن مصر يغلب عليها المذهب الشافعي , فاستنتجت أنني لا بد أن أكون شافعيا كذلك . فأخبرت الرجل أنني شافعي المذهب . ولكنه واصل السؤال : ماذا تعرف عن محمد بن عبد الوهاب. ؟
وقد تصادف أنني أحضرت معي كتابا جامعا لمؤلفات ابن عبد الوهاب , وقد أعجبتني كثيرا خاصة وأن ما كنت أسمعه عنه كان شديد العداء له ولحركته , ولكنني عندما بدأت في قراءة كتبه أعجبني أسلوبه ومنهجه . وبكل سذاجة بدأت أعدد مزايا ابن عبد الوهاب أمام المولوي الشاب , وبعد عدة سنوات أدركت لماذا لم أر هذا المولوي إطلاقا بعد ذلك وكان هذا هو حديثي الأول والأخير معه . وبعد سنوات أخرى أدركت مدى العداء الشديد الذي يكنه أحناف أفغانستان - وهو المذهب الوحيد هنا تقريبا - للشخ ابن عبد الوهاب.
وبعد الجلاء السوفييتي وتفجير الخلافات بين الأفغان والعرب المجاهدين , كان الخلاف المذهبي والعداء بين "الوهابية" و "الأحناف" هي الراية المقيتة لذلك الخلاف الذي أشعلته أمريكا في حملة طويلة لمطاردة المجاهدين العرب واستئصالهم من منطقة وسط وجنوب آسيا.
الورقة "الشيعية" كانت هي الأخرى ورقة رابحة في اليد الأمريكية البارعة واستفادت منها على امتداد العالم الإسلامي كله ومن ضمنه المنطقة الأفغانية . وقد انساق المسلمون على الساحة الأفغانية وراء المستنقعات العفنة التي حفرتها أمريكا بسواعد حلفائها - أو أتباعها - من الدول "الإسلامية" والحركات الإسلامية التي انساقت - بدوافع مختلفة خلف ركب الفتنة - وقد غطت العيون والقلوب ستائر الجهل أو التعصب أو المنفعة المادية - أو جميعها - وكانت أفغانستان ساحة خصبة لكل ذلك.
كانت الثورة الإيرانية "حدث العالم" في ذلك الوقت , بينما أفغانستان تخوض في بحار الدماء بعيدا عن الأعين والأبصار . وأذكر أنني جلست مع صديقي إسماعيل لتسجيل رسالة صوتية من الشيخ جلال الدين حقاني وجاء سؤال له عن الثورة الإيرانية و "الإمام الخميني" -- وكان رده طيبا ومرحبا , ولم نجد نحن حرجا من توزيع الرسالة بعد عودتنا إلي أبو ظبي - وكانت الثورة في إيران قد وصلت إلى السلطة منذ أشهر قليلة وسط ترحيب شعبي هائل عل مستوى الرأي العام.
وبعد سنوات كم تغيرت الصورة وأصبح طعن فى الخميني وتكفير الشيعة "فرض عين" على كل مسلم (!!) .
وعندما تنامى الدور السعودي - العلني - في أفغانستان سمعت عام 1986 من بعض أنصارها المذهبيين - أقصد السلفيين - أن أخطر الأخطار على مستقبل أفغانستان هم الشيعة الأفغان وليس الإحتلال السوفيتي . وعلى قدر ما أدهشني الطرح وهو من شاب إسلامي مرموق في الوسط "المهرجاني" وأوساط الندوات والمؤتمرات شرقا وغربا , على قدر ما فشلت في إقناعه بأهمية تأجيل ذلك الخطر الداهم والتعامل معه إلى ما بعد الجلاء السوفييتي (!!) . ولكنه نظر إلي متشككا . فمن المفروض - في رأيه - أن كل مسلم صحيح العقيدة لايتردد في تأييد طرحه ذلك على طول الخط.

وفي نفس العام قابلت آخرا من نفس المدرسة وينتمي إلى الشمال الإفريقي - ترك الجهاد في أفغانستان وأخذ يدعو غيره إلى ذلك - وبالطبع دعاني إلى ذلك فسألته عن السبب فقال لي بأن المذهب الحنفي يحتوي على ما لا يقل عن عشرة مسائل يخالف فيها - عن سبق إصرار وترصد - السنة النبوية المشرفة . اعتذرت له بكوني غير عالم حتى أحكم على "انحرافات" أبي حنيفة ولكنني سأصدق ما يقوله بلا مناقشة بأن لدى أبي حنيفة عشر مسائل يخالف فيها السنة النبويه عن عمد ولكنني متأكد - في حدود علمي - أن بابرك كارمل رئيس النظام الشيوعي في كابل لا يوافق الشرع أو السنة في مسألة واحدة . فأيهما أولى بأن يحكم أفغانستان ؟ شرع أبي حنيفة أن شرع ماركس. ؟

بالطبع لم يعجبه القول ولم أره بعد ذلك إلا مرة واحدة بعد انسحاب الروس وقد انحصر معسكر المسلمين في نظره إلى أشخاص قلائل . هو بالطبع على رأسهم.

الجانب "الحنفي" لم يقصر في رد التحية بأحسن منها فموقف معظم العلماء عندهم أكثر تشددا إزاء "الوهابية" منهم إزاء "الشيعة" . فالأولى كفر والثانية بدعة . أما المودودية نسبة إلى المودودي مؤسس الجماعة الإسلامية في الهند فهو يلحق بابن عبدا لوهات من حيث الدرجة في الحكم.

تميز الجانب الأفغاني بضبط النفس , ثم عبر عن نفسه بدرجة "معقولة" من الوضوح بعد معركة جلال آباد . ثم بكثير من الوضوح بعد سقوط النظام الشيوعي في كابل حيث تجلت المواقف الحقيقية لقادة الأحزاب "الجهادية" , سواء مواقفهم الإعتقادية أم السياسية , وجميعها كانت معاكسة بشكل كلي لما كان معلنا في سنوات "المحنة" و "الجهاد المقدس" . وفي "قندهار" أطلقها أحد "العلماء" بأن قتل وهابي واحد أكثر أجرا عن الله من قتل ثلاثة عشر روسي ( بالتحديد !! ) . سمعت تلك الفتوى عام 1989 - عام جلال آباد - والمدهش أنني سمعتها منذ شهرين ( يوليو 1994 ) عندما أوقفنا "المجاهدون" التابعون لبرهان الدين رباني رئيس الدولة - وكان يظننا من الطاجيك - ولكنه اعتذر قائلا : ؛ لقد ظننتكم عربا وهابيون ... وكم أتمنى من الله أن أقتل أحدهم فذلك أعظم أجرا وثوابا من قتل ثلاثة عشر روسي !!« . مرة أخرى نفس التسعيرة التي وضعت في قندهار والعجيب أن لدى معظم العوام هنا - في أفغانستان - أن كل عربي وهابي - وليس كل وهابي عربي - لأن هناك بعض الأفغان قد تحولوا إلى الوهابية وتلك قصة أخرى.

كانت زيارتنا الأولي مثل البذرة التي تحوي كل الخصائص الوراثية للنبات القادم من أحشائها . ولم أتبين ذلك بوضوح إلا على مراحل . وفي الوقت الراهن أعتقد أن الوضوح هو في أقصى درجاته بعدما اكتملت التجربة وظهر جليا كل - أو معظم - ما كان خافيا أو غامضا غير مفهوم بالنسبة لنا.

الأخطاء والمزايا جميعها كانت موجودة , على جانبنا نحن العرب - ولو كمجموعة بسيطة كمجموعتنا الثلاثية - ولكن معظم سمات التواجد العربي اللاحق و ملامحه الرئيسية تواجدت فينا من ضعف التأهيل الديني والسياسي والعسكري لمواجهة عظيمة بهذا الحجم بين الإسلام - الذي يمثله أفراد مندفعون غير مؤهلين - ومن خلفهم أمة تائهة ضائعة مستعبدة مستباحة الحرمات.

وتواجدت فينا الأحلام الهائلة - الهلامية - غير محددة العالم , ولا ندري لها كيفية للتنفيذ على أرض الواقع . تلك الأحلام تعكس مدى جهلنا بواقع العالم بل واقعنا نحن . ولعل ذلك الجهل كان أحد أسباب جرأتنا في الحركة . إنها شجاعة الجهل التي أدهشت كثيرين وجلبت لنا الكثير من المشاكل والإتهامات والتشكيك وقادتنا إلى الصدام مع الكثيرين والذي أدهشنا أكثر من أي شيء آخر أو أول صدام وأقساه على نفوسنا جاء من تلك الجهة الإسلامية التي حاولنا التعلق بها كما يتعلق الغريق بقشة وسط موج هائج . وأقصد بها جماعة "الإخوان المسلمين" التي لاقينا منها أشد العنت طوال عملنا في قضية أفغانستان . ثم لاحقتنا بعض "بركاتها" عندما حاولنا - هذه الأيام - الإنتقال للعمل في قضية طاجيكستان.

لقد أحيت فينا "التجربة الأفغانية" الكثير من الآمال وأوضحت لنا وأنارت الكثير من السبل العملية وزودتنا فيها بشيء من البصيرة والخبرة , لكنها أيضا أطاحت بآمال وأحلام أخرى كثيرة أولها كان جماعة "الإخوان المسلمين" وآخرها تلك الآمال الساذجة في دولة على وشك الظهور في أفغانستان تحكم على نهج النبوة على أيدي خلفاء راشدين (!!) . وبين هذه وتلك تقع أحلام أخرى خاصة بتجميع "أمة الإسلام" خلف قضية ما أو زعامة ما , ورغم أن قناعاتنا مازالت على أن السعي نحو تلك الوحدة إنما هو فرضية دينية إلا أن قناعتنا حالية هي أن ذلك هو المستحيل الثامن إلا أن يتغمدنا الله برحمته , لأن تلك الوحدة ظهر لنا بالدليل العملي أنها فوق

قدرة البشر أجمعين ؛ لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم « . إنها معجزة إلهية بحتة وإن كان السعي الإنساني إليها ضرورة دينية كما أسلفنا رغم يقيننا بالعجز أمام تلك المهمة.
وما أشبه ذلك بالقتال ضد جيوش جرارة حديثة ومتفوقة في كل شيء - ما عدا الإيمان - وهذا ما رأيناه ولمسناه بالحواس "الستة" في أفغانستان أنها مهمة مستحيلة بالمقياس البشري ولكنها تحققت أمام أعيننا في أفغانستان , وما أظن أن بني إسرائل مع نبي الله موسى كانوا أشد دهشة منا وهم يشاهدون بأم أعينهم معجزة شق البحر وابتلاع الموج لأقوى طواغيت الكفر وجنوده.
إذن وحدة الأمة هي "المعجزة المنتظرة" - كما أظن - ويأتي بها الله عندما يرى سبحانه أن عباده قد تهيأوا لاستقبالها لما هو أهل لها من طاعة وانقياد وتذلل إلى الله - من دون العباد. -
لقد أظهرت التجربة الأفغانية - من وجهة نظري - مدى ضعف بنية العمل الإسلامي الطليعي المتمثل في الجماعات وكم أن تلك الجماعات بعيدة عن الأهداف المعلنة لها بل ومناقضة لها في أكثر الأوقات . وكم أن الفرد المسلم المنتمي للجماعات - أو الملتزم وغير المنتمي - ما زال بعيدا عن المستوى المطلوب . باختصار لم ألاحظ في تلك التجربة أن لدينا الآن الفرد المسلم الحق الذي يمثل هذا الدين والذي يمكن له أن يقابل النماذج البشرية الكفرية المدججة بأسباب القوة المادية . إن قوانا الروحية والأخلاقية لم يتم حشدها . فما زلنا ملوثين إلى درجة خطيرة بالمثل والخلق الجاهلي . ومهزومين داخليا - مهما علا صراخنا بعكس ذلك - أمام حضارة الغرب الملحدة.
من السهل انحرافنا أو شرائنا أو تسخيرنا لمشيئتهم ومخططاتهم بعلم منا أو بجهل . وما حركتنا في أفغانستان ثم البوسنة إلا أمثلة لهذه السيطرة "الطاغوتية" وتحكمها عن بعد أو عن قرب بأفضل تحرك إسلامي في العصر الحديث ألا وهو التحرك الجهادي . هذا التحرك الذي برز وتنامى في أفغانستان ولم تتبلور له قيادة أو أسلوب عمل أو أدوات تنظيمية أو فكر واضح المعالم ومتكامل ويغطي مجالات الحركة المطلوبة عسكريا وسياسيا في ظل مفاهيم شرعية واضحة ومنضبطة.
هذا كله لم يحدث في أفغانستان , وحتى الآن لم يحدث في أي مكان آخر حسب علمي لا في البوسنة ولا طاجيكستان , ولا مصر ولا حتى الجزائر رغم التقدم الكبير للعمل الجهادي بها حتى لحظة كتابة هذه السطور .
فقد أثبتت أفغانستان أن العبرة بالنتائج النهائية للعمل الجهادي وليس بمقدار التقدم العسكري لهذا العمل في مرحلة من المراحل . وتعلمنا من أفغانستان أن الصراخ الجهادي مهما علا وثقب الآذان وهز الجدران لا يعني بأي حال أننا أمام عمل جهادي صحيح أو قيادة إسلامية مخلصة . وكثيرا ما تتناقض حدة الصراخ مع درجة الإخلاص .
وإلا لكان الشعب الروسي أكثر الشعوب إيمانا بالشيوعية وإلا لكان القادة الأفغان والمنظمات الجهادية في أفغانستان أكثر إلتزاما بأبسط أحكام الإسلام وأقل خضوعا للدول الخارجية الكبيرة منها والحقيرة , من أمريكا وحتى باكستان مرورا بالسعودية وإيران وحتى أوزبكستان وطاجيكستان المحكومتان بنظم شيوعية حتى الآن .
ولكن نفوذها داخل أفغانستان "الإسلامية" "المجاهدة" أكثر من النفوذ العملي لأبي حنيفة رضي الله عنه.
كان من أخطائنا البارزة ذلك الخطأ في تقييم الشخصية الأفغانية , وتلك الشخصيات التي قابلناها في رحلتنا الأولى حينما كان الجهاد في أنقى صوره قد أسرتنا مثالياتها من بطولة وإيمان وتضحية وتقشف وحماس ... الخ فعممنا ذلك على كل الأفغان , وتصورنا المجاهد الأفغاني في صورة أقرب للملائكة . وأعترف أنني كنت الأكثر مغالاة في ذلك الجانب من صديقاي أحمد وإسماعيل . وقد كانت أول مرة أغضب فيها على صديقي المنياوي هي تلك المرة التي اتهم فيها أحد المجاهدين بسرقة بعض متاعه - وإن كان قد صرح بذلك سرا بيني وبينه - وغضبت لكونه اتهم مجاهدا بالسرقة . ومرة أخرى اتهم آخر بالكذب وكان تقييمه النهائي للأفغان "إنهم قوم يستحيل معاشرتهم !!" . كم أحزنني وأغضبني هذا التقييم القاسي . ولكن السنوات أثبتت صحته بكل أسف , فهناك الكثيرون من السراق والكاذبين بل والمنافقين كانوا دوما في صفوف المجاهدين وبنسبة متزايدة مع الزمن وساعد على ذلك أمراض أخلاقية مزمنة في المجتمع الأفغاني إضافة إلي ملابسات القضية الأفغانية والتداخلات الخارجية فيها . وليس الشعب الأفغاني منفردا بتلك العيوب , مع كونه يجمع مزايا أخرى نادرة يصعب العثور عليها في أكثر الشعوب الإسلامية الأخرى.
لقد كان صديقنا الصعيدي أكثر خبرة بالناس ساعدته في ذلك ظروفه الشخصية التي سادها الإضطراب لفترة الصبا التي نضجت فيها شخصيته مبكرا . أما أنا فكنت أقرب إلي تكوين "طالب الجامعة" المثالي قليل التجربة .
أما صديقي إسماعيل فهو السياسي المثقف الذي اكتسب تجربة في العمل السياسي الجامعي فيما بعد مرحلة عبد

الناصر . لذلك وبعد زيارته الأولى إلى أفغانستان كان رأيه أن الأفغان أقل من مستوى طموحاتنا والدور الذي نحلم أن يلعبوه على المسرح الإسلامي والدولي وكان أيضا صادقا فيما ذهب إليه , وكنت أوافقه على رأيه ولكنني كنت مصرا أنهم سوف يفعلون الكثير للإسلام ولمشروعنا الجهادي أيضا - رغم بساطتهم السياسية - على حد تعبير إسماعيل بعد زيارته الأولى.

ثم تابع كل منا تجربته من مسار مختلف وزاوية مغايرة فزاد التباين بين وجهات النظر - منذ العام الأول - فبينما ذهبت مع أحمد إلى جبهة القتال , عاد إسماعيل إلى بيشاور بعد أن تورمت ركبتاه المصابتين منذ عهده الرياضي الحافل , وهناك التقى مع جماعة "حكمتيار" وهم مثقفون نشطون يختلفون كثيرا عن مجاهدي الجبهة الذين هم رجال من الصخر أو أشد ولا يكاد يكون لهم دراية بعالم السياسة المعقد والغامض.

كون إسماعيل رأيا بأن حكمتيار قد يكون الأقدر على القيادة وأن كوادره لا بأس بها لو وجدت الفرصة والإمكانات , وخالفته بشدة في ذلك بعد ما رأيت وسمعت في الجبهات ثم في بيشاور من جهات معارضة ل- "حكمتيار" . فقد كان رأيي أن "حكمتيار" مشروع كارثة.

وللأسف فإن علاقاتي قد توترت مع إسماعيل لفترة نتيجة لإصرار كل منا على وجهة نظره . وانتهى الأمر بإسماعيل إلى ترك العمل في القضية الأفغانية تماما . بينما أكملتها إلى الرمق الأخير , وبقي أحمد على نوع من الإرتباط المرن والفاعل وحرص على عدم الغرق في بحارها كما فعلت . ولكنه ظل مفيدا حتى اللحظة الأخيرة للقضية.

وأثبتت الأحداث أن كلانا - أنا وإسماعيل - كان على شيء من الحق . فالرجل "حكمتيار" كان نشطا وذكيا وحادا ويمتلك أفضل تنظيمات الأفغان نشاطا وحركية ولكن كل ذلك كان يتحرك في اتجاه الكارثة ومكرسا بالكامل لمصلحة قوة خارجية - هي باكستان - ومصالحها وتوجهاتها السياسية أكثر من ارتباطه بقضية إسلامية أو حتى وطنية على أرض أفغانستان . وقد اتضحت لي هذه الصورة بدون التباس في أواسط الثمانينات عندما بدأت أتلمس عن قرب - في إسلام آباد - أثناء عملي الصحفي , ذلك الميكانيزم - أو الآلية - الدولية التي تحرك الصراع داخل أفغانستان.

وحتى أخطاء العمل العسكري كانت بذورها واضحة في تلك الزيارة . وأبرزها مشكلة القيادة وتبعثرها وعدم الإجماع على قيادة واحدة حتى داخل المنطقة الواحدة . ثم مشكلة التدريب على الأسلحة الحديثة والتكتيكات العسكرية المناسبة . أما الإستراتيجية الشاملة للعمل العسكري فلا تسأل عنها حتى نهاية الحرب.

ومشكلة الغنائم كانت معضلة بقد ما كانت مأساة وتستحق أن نفرد لها حديثا مفصلا . ولكنها معضلة ظهرت واستمرت وتفاقمت منذ اللحظة الأولى حتى اللحظة الأخيرة للقضية الأفغانية . وكانت نتائجها مأساوية على مسيرة الجهاد كما سنتحدث لاحقا . وعلى الجانب العربي , فقد كان ثلا ثتنا مشروعا لتواجد عسكري عربي دائم وطليعة لذلك المشروع الطموح والهلامي لقوة إسلامية ضاربة ومتحركة.

وكان من مشاكلنا التدريب والتسليح والتمويل والقيادة ثم الإتصال "بالأمة الإسلامية" التي نطمح إلى إيقاظها والدفاع عنها - كل ذلك دفعة واحدة بدون أن ندري إجابة لأي سؤال يبدأ بكلمة : كيف . "?

كانت تلك مشاكلنا - أو الجزء الهام منها - وقد ظلت مشاكل أيضا للتواجد العربي طوال فترة عمله في القضية الأفغانية . وقد ذكرنا من قبلا أن مشاكلنا المبكرة في عدم وجود قيادة لنا أو رؤية موحدة لنفس الحدث الذي نعايشه والقضية التي نعمل لها , ولا حتى إدراك كافي لهذه القضية وأبعادها السياسية أو مستلزماتها العسكرية من وجهة نظر احترافية فما نحن إلا هواة عديمي الخبرة إضافة إلى سذاجتنا في تناول الحدث والتعامل معه أو في فهمه وتحليله.

لقد قفزنا ببساطة إلى المجهول كي نتعلم . فهل تعلمنا ؟ ... أرجو أن نكون قد تعلمنا قليلا.

انتهت فترة انتظارنا في "سرانا" بعد وصول أسلحتها التي اتفقنا مع "مطيع الله" على شرائها وإرسالها بعد توزيع الغنائم . استلمت وصديقي أحمد بندقيتين من طراز كلاشنكوف مع مخزنين من ذخيرة لكل واحدة .كان إسماعيل قد غادر منذ فترة - يعاني من الآلام المبرحة في ركبتيه - وأخذ معه كمية من الأفلام التي تم تصويرها وتقرير صحفي عن أهم ما شاهدناه إضافة إلى بعض الأخبار , وكانت تلك أول مساهماتي الصحفية الميدانية في قضية أفغانستان.

كان يوم الخميس عندما ودعنا حقاني وأرسل معنا أحد رجاله كي يصطحبنا إلى "الخط الأول" حيث مركز مولوي "عبد الرحمن" في "دارا" , وهي قرية كبيرة تقع على الطريق الرئيسي في بدايته تقريبا - المتوجه

صوب خوست . تلى "دارا" قرية أخرى إلى الجنوب تسمى "غلجاي" ثم تبدأ مرتفعات "ستي كندو" الرهيبة والتي تكسوها غابات الصنوبر.
قضينا ليلة الجمعة قريبا من قمة جبل يشرف على دارا من جهة الغرب وعلى بعد عدة كيلومترات منها . ذلك البيت المكون من غرفة واحدة ويديره مجاهد في منتصف العمر مع ابن له , كمركز متوسط بين القيادة الخلفية في "سرانا" وبين "البؤر" المتقدمة حول سياج المدينة الخارجي . توافد علي البيت حوالي عشرة مجاهدين آخرين قرروا المبيت حتى الصباح حيث يواصلون المسير إلى "بؤر" مختلفة . وقد أكرمنا "مدير" المنزل بدجاجة كاملة , احتفالا "بالمجاهدين" القادمين من "عربستان" . ولم تكن تلك هي المناسبة الأولى - أو الأخيرة - التي اكتشفنا فيها أن لحم الدجاج الأفغاني غير قابل للأكل فهو قاس جدا وغير قابل للطهو مهما طالت المدة وتعالت النيران.
مع أول ضوء شرعنا في نزول الجبل مع الدليل , وكانت رحلة سهلة لكونها تنحدر إلى أسفل , وأدهشنا وجود كتل ثلجية في أخاديد تلك الجبال الشاهقة , ونحن في شهر مايو . وصلنا إلى أحد الشعاب المتسعة نسبيا والذي يشبه مجرى نهر جاف غير أن جدول ماء رائق وغزير نسبيا يتخلله من المنتصف . على الجانبين أجراف تمتد عدة أمتار , وقد حفر المجاهدون على مسافات متباعدة بعض الحفر الأفقية في محاذاة مستوى الأرض إلى داخل الجرف , وقد ظهر لنا فيما بعد أهمية هذا الإجراء البدائي في الوقاية من نيران المدفعية والطائرات , وقد لمسنا ذلك بعد وقت يسير في نفس المنطقة.
انحرفنا يسارا إلى شعب أضيق يمر به مجرى مائي أصغر . وبعد حواليخمسين مترا بدأت تظهر علامات لا تخطئ بأن هناك بشرا يسكنون المكان . هناك عمائم مطروحة على جانب التلال الشرقية كي تجف , فاليوم الجمعة وقد شاهدنا أفراد من المجاهدين منهمكين في غسل ملابسهم . تلك العمائم تبلغ الواحدة منها عشرة أمتار تقريبا في الطول ومترا ونصف المتر في العرض وقد نشرت في ضوء الشمس متتابعة فبدت كعلم صخم متعدد الألوان . فهناك الأبيض والذهبي والأسود والأخضر . كانت مظاهرة فلكلورية جميلة لكني شعرت بالخطر فأي طائرة تمر بمكنها تمييز المركز بسهولة . ولم نكد نسير إلا قليلا حتى رأينا عرضا آخر عبارة عن عدد من الآنية المستخدمة في الطبخ وأباريق الشاي وعلب السمن الفارغة وقد نثرت على جانب الوادي تحت أشعة الشمس وقد أعطت إشارات لا يخطئها عاقل بأن هناك مركزا للمجاهدين في ذلك الوادي.
تعرفنا على "مولوي عبد الرحمن" قائد المركز وهو شاب فارع الطول وقوي البنية لا تنقصه روح الدعابة مع ابتسامة ساخرة لا تكاد تفارق وجهه , يضع نظارة طبية منذ فقد إحدى عينيه في معركة مع الشيوعيين منذ أشهر قليلة . كان مشهورا بشجاعته ومواقفه الفاصلة مع رجال الحكومة في جرديز . وتعرفنا أيضا على مولوي "محمد سرور جان" وهو خال مولوي عبد الرحمن رغم تقاربهما في العمر . وهو يتكلم العربية لدرجة تكفي لأن يكون مترجمنا الخاص منذ لحظة انضمامنا إلى المعسكر وحتى عودتنا إلى ميرانشاه مرة أخرى . وكلا الرجلين مازال حيا حتى الآن ضمن مجموعة قليلة من أفراد ذلك الجيل الأول الذي فجر الجهاد وشارك فيه إلى لحظات النصر الأخيرة ... ومعظم هذا الجيل قد لاقى حتفه على طريق الجهاد .
بانضمامنا إلى المركز صار عدد المجاهدين اثنا عشر شخصا ثلثهم تقريبا من جنود الجيش الذين انضموا للمجاهدين . ضحك مولوي عبد الرحمن قائلا :؛ ما أغرب هذا المركز !! عندنا اثنا عشر مجاهدا يتكلمون أربع لغات. »!!
تنبهت إلى تلك الحقيقة - التي تختزن حقائقا أعمق وأخطر - وهي انصهار تلك القوميات المختلفة تحت راية الجهاد منذ ذلك الوقت المبكر . كان هناك البشتون - أهل المنطقة - والعرب - أنا وصديقي أحمد - ثم الفرس والأوزبك من جنود الحكومة المنضمين إلى المجاهدين.
ذكرني ذلك الموقف الإسلامي الرائع والبسيط في مركز مولوي "عبد الرحمن" بذلك العفن الذي تديره أمريكا الآن فى أفغانستان لإثارة النعرات القومية والنزاعات المسلحة بين القوميات .ومنذ الفتح وحتى الآن والحرب دائرة بواسطة "التنظيمات الجهادية" التي تديرها أمريكا ودول المنطقة لإزالة آثار الجهاد من أفغانستان وعودة النتن الجاهلي ... إن الجهاد ضد الشيوعية ولإعادة الإسلام إلى أفغانستان كان نموذجا عمليا ناجحا لمشكلة القوميات في آسيا الوسطى الإسلامية , وبدون ذلك لا مستقبل لتلك المنطقة الحيوية غير الصراعات الدامية التي لا تنتهي أو أن تتوحد مرة أخرى تحت قهر الروس الدموي . لهذا تبذل أمريكا ونظامها الدولي حاليا أقصى الجهود في سبيل منع الحركة الجهادية من الإنتقال إلى طاجيكستان التي بدأ فيها القتال بين المسلمين والشيوعيين

على أسس قبلية وعرقية في البداية ثم على أساس ديني لاحقا . وتشارك أمريكا في ذلك المجهود , المنظمات "الجهادية" النافذة والتي تتولى أو تشارك في السلطة حاليا داخل كابل . وقد أبدى عدد قليل من القادة الإسلاميين الشباب باقتناعهم بأن الحل الوحيد لمشاكل القوميات في بلادهم داخل آسيا الوسطى هو الحل الجهادي الإسلامي , الذي يزيل الفوارق بين الأجناس ويجعل التقوى والعمل الصالح والجهاد هما أساس التفاضل بين الناس.

بعد الترحاب وجلسة الشاي التقليدية للترحيب , بدأنا مع مولوي عبد الرحمن , الهواية العربية التقليدية التي لم تبارح العرب في أفغانستان , ألا وهي هواية إسداء النصح والتوجيه الديني والإرشاد ... وصولا إلى اقتراح الخطط العسكرية الناجعة التي تتبع أفكارها غالبا من أفلام السينما الأمريكية ومسلسلات التلفزيون.

كان ذلك الدور "التعليمي" للعرب غير متقن بل ممجوجا في أكثر الأحوال . فلا النصح الديني كان مبنيا على معلومات دينية دقيقة ومؤصلة , ولا النصح العسكري صادر عن خبرة ودراسة . ومع هذا فإن ما مارسناه من نصح مع مولوي عبدالرحمن كان معقولا - في ظني - فقد حدثناه في شأن "كرنفال" العمائم المنشورة على سفح الجبل والأوعية المعدنية المتناثرة في الشعب.

ضحك مولوي عبد الرحمن على استحياء قائلا بأن المجاهدين لا يبالون عادة بمثل هذه الأشياء , وأصدر بعض الأوامر لإصلاح الخلل كنوع من المجاملة لنا . وقمنا لمساعدة المجاهدين في إخفاء تلك الإعلانات الفاضحة عن الموقع . وكانوا يفعلون ذلك بلا اقتناع . وتناقلوا بالطبع فيما بينهم - وكما حدث معنا كثيرا في سنوات تالية - مقولة هازئة بأن "العرب خائفون" . مرت طائرة مرتفعة عدة مرات فوق الموقع , ولم نكن انتهينا من عملنا لأن بعض المجاهدين لم تجف عمائمهم بعد . وضحك بعضهم وأشاروا إلى الطائرات قائلين : إنها مرتفعة جدا ولا يمكن لها أن تشاهد مثل هذه الأشياء الصغيرة . لقد أدهشني - طوال مدة الحرب - استخفاف المجاهدين بالطائرات النفاثة ولم يكن الحال كذلك مع طائرات الهيلوكبتر كما لمسنا ذلك أيضا منذ زيارتنا الأولى تلك.

كان تقديرنا لخطورة الطائرات كبيرا ويرجع ذلك إلى تراثنا العربي العسكري مع إسرائيل , ذلك التراث المخزي الذي ضخم من دور الطيران وأهميته - لتعطية التآمر الرسمي العربي - رغم أن دور الطيران في الأساس هو دور هام في الحروب خاصة بعد روس الحرب العالمية الثانية التي أفادت بأن الحرب الحديثة يتم كسبها أو خسارتها في السماء . أي أن السيطرة على السماء هي المقدمة للسيطرة على أرض المعركة . لقد اكتشفنا لاحقا ذلك الإستثناء الهام لكون حرب العصابات لا تسري عليها نفس القاعدة بشكل كامل . فالجبال والأشجار وقلة الكثافة البشرية للمقاتلين وقلة عتادهم ومرونة حركتهم , تجعل الطائرات القاذفة والمقاتلة "النفاثة" أو الجت كما يسميها الأفغان قليلة الفعالية بشكل ملحوظ - وإن كان تأثيرها النفسي على الأهالي كبيرا لبشاعة الضرر الذي تلحقه بقراهم ومدنهم - . أما الهيلوكبتر فقد أثبتت مرة أخرى في أفغانستان - بعد أن أثبتت قبل ذلك في فيتنام - أنها السلاح الجوي الأمثل للتأثير على قوات المجاهدين.

على أية حال فإن الطائرات احترمت ضيافتنا والإجازة الأسبوعية للمجاهدين , واكتفت بعدة دورات فوق المنطقة , ولكنها منذ صباح السبت تصرفت بشكل غير لائق بالمرة . فلم نكد نرفع أكواب شاي الصباح حتى صبحتنا أول غارة جوية ونحن مازلنا جلوسا نتبادل البسمات والأحاديث المشوقة.

لقد فاجأتنا الطائرات المنقضة على "مركزنا" الصغير فساد الإضطراب والفوضى , وتركنا كل شيء وبدأ كل منا يفكر بأقدامه التي تقوده إلى أي حفرة . كان وقتا عصيبا ان نواجه مثله من قبل . ومرت الدقائق كأنها ساعات طوال والإنفجارات تتلاحق في كل مكان من حولنا . انتهت الغارة فجأة كما بدأت فجأة . وساد صمت رهيب وابتعد هدير الطائرات . زففت الخبر السار إلى صديقي أحمد المستلق على جانبي في حفرة شقها السيل في سفح الجبل القريب وقلت له بصوت خافت :؛ لقد ذهبوا « . وكأنني خشيت أن تسمعني الطائرات . جهزت نفسي لسماع أخبار سيئة ورؤية مناظر فاجعة , فلا بد أن هناك إصابات وقتلى بعد أن تساقطت فوق رؤوسنا مئات من القنابل الصغيرة المليئة بأشرطة من رقائق الألومنيوم التي تتناثر مثل الشفرات القاطعة المشتعلة . تنادى المجاهدون وكل منهم يخرج من مكان غير متوقع والكل يضحك وكأنها نكتة مرحة . وكان نفس الشيء يحدث أعقاب كل الغارات التي شاهدتها فيما بعد . لقد كانت الضحكات اعتذارا مهذبا عن الإختباء والهلع الذي أصاب الشخص لحظة المحنة الجوية . لم يصب أي أحد وهذا ما أدهشني ما عدا شاب واحد قد أدمت أذنه اليمنى شظية من الألومنيوم المشتعل فأصابته بخدش صغير.

تولى صديقي أحمد علاجه بما يحمله من أدوات إسعاف أولية وكانت تلك أحد مآثره العملية الرائعة.

لم نكن نحن أصحاب المشاريع الإستراتيجية الكبيرة نفكر في اصطحاب قطعة من الشاش إلى موقع القتال . لقد كانت أدوات الإسعاف التي حملها المنياوي معه مصدر سعادة للمجاهدين وتجمعوا حولها ينظرون إليها وإلى أحمد وهو يعالج الخدش وكأنهم يشاهدون جراحة معقدة في القلب , وظن بعضهم أن صديقي إنما هو طبيب نادر المثال هذا على عادة الأفغان في المبالغة.
سادت البهجة والمرح في صفوف مركزنا بعد النجاة من هذه الغارة المفاجأة والعنيفة , وأعد المجاهدون طعام الغداء والذي يتكون من "الثريد" بشكل ثابت ويومي . وتحلقنا حول القصعة نتناول الطعام - غير الشهي بطبيعته - ولكننا نتناولها بسعادة وشوق كأننا نستقبل حياة جديدة . لم يستمر ذلك طويلا فقد باغتنا العدو مرة أخرى بغارة مفاجئة وعنيفة كسابقتها . وتكرر المشهد وتبخرت البهجة . واطلقنا العنان لأرجلنا وارتميت وصاحبي في ذات الحفرة . ومرت السنوات الطوال والقنابل تتساقط على جانبي حفرتنا وعلى طول المعسكر حتى نهاية الشعب , وتحولت التلال المحيطة إلى دخان وأتربة ونيران . مرة أخرى لا إصابات ولا خدوش . ولكنني لم أستطع استعادة حالتي المرحة إلا بعد وقت طويل نسبيا , أي قرب صلاة العصر , ولم أكد أفعل حتى عادت الطائرات مرة ثالثة لتكرر معنا نفس المشهد البائس , ومرت سنوات أخرى من الرعب وانتهى المشهد ولكن هذه المرة لدينا جريح , أنه نفس الشاب الذي أصيبت أذنه في الصباح . هذه المرة أصابته شظية ألومنيوم في سطح قدمه اليمنى فمزقت النعال وحفرت شقا طويلا في الجلد بعمق عدة مليمترات.
لقد نزف كثيرا من الدماء, وتمكن أحمد من إقاف النزيف وتضميد الجرح, والشاب يضحك مع زملائه ويتبادل النكات حول مغامرات هذا اليوم مع الطائرات وكيف أنه المصاب الوحيد في غارتين , وكانت مشكلته الحقيقية ليست مع الجروح ولكن مع النعال الذي تلف وكيف يتحرك فوق الصخور والأشواك بقدم جريحة وبلا نعال؟
بعد صلاة المغرب تجمعنا حول بقايا من الخبز اليابس بدون شاي , فأحداث اليوم لم تترك مجالا لغير ذلك , ودارت الهمسات حول شكوك بوجود جاسوس في المعسكر أو قريبا منه أبلغ "الحكومة" بمكان المركز وتواجد العرب فيه . ولكنني ضحكت وقلت لهم أن مهرجان العمائم كان كافيا لاجتذاب سلاح الطيران الشيوعي بأكمله . ولعل ما حدث اليوم يكون درسا في الحذر.
لم يقصف الطيران هذا الشعب مرة أخرى واكتفى بقصف مناطق قريبة منه , فقد كان منطقيا ألا يحاول مخلوق أن يقترب من ذلك الوادي مرة أخرى بعد كل تلك القنابل التي أحرقته وأحرقت الجبال المحيطة به . كان ذلك هو الحساب المنطقي لأي رجل عسكري , ولكنه كان غير صحيح وكم كان مخطئا ذلك التفكير المنطقي في معظم أوقات الحرب الأفغانية. !!
لقد كان منطق العمل لدى المجاهدين هو مخالفة كل منطق وذلك لأسباب تتعلق بالشخصية الأفغانية العنيدة وغير المبالية بالمخاطر , كان من المستحيل تقريبا على أي قائد عسكري يواجههم أن يتنبأ بأفعالهم أو ردود أفعالهم إزاء أي عمل . وكانت تلك من ميزات المجاهدين الهامة جدا في عملهم وإن كانت غير مقصودة بالمرة بل غريزية تماما.
وفي ظني أن العريزة القتالية هي خير أستاذ لرجال حرب العصابات - خاصة في مرحلتها الأولى - والغرائز لدى الرجل البعيد عن الحضارة هي أقوى منها لدى رجل آخر نشأ في وسط المدينة . لذلك فإن الشعوب "البدائية" أفضل أداء ا في حروب العصابات من الشعوب المتحضرة . ولكن تلك الحرب في مراحلها التالية والأكثر تعقيدا لاحتياجها أكثر وأكثر لمزيد من الأسلحة المتقدمة وما يلزمها من تكتيكات قتالية معقدة نسبيا , في تلك المراحل تكون البدائية والعشوائية كارثة بكل معنى الكلمة . ولا بد من توافر قيادات وكوادر عالية المستوى لتولي زمام تلك الحرب , هذا بالإضافة إلي الأسلحة المتقدمة والتدريب اللازم لاستخدامها على أرض المعركة.
لقد بقينا عدة أيام في نفس المنطقة , تلقينا فيها العديد من قذائف الهاونات الثقيلة أطلقها العدو كنوع من الإحتياط لتأمين المنطقة . وشاهدنا أيضا غارة جوية من هيلوكبتر عسكرية ضد مكان يبعد عنا حوالي كيلومتر واحد , وأدهشني مدى انزعاج المجاهدين ورهبتهم من تلك الطائرة اليتيمة والبعيدة عنا وهم المشهورون بالإستهزاء بالمخاطر خاصة إذا كانت بعيدة في الزمان أو المكان ولكنهم حكوا لي قصصا عجيبة عن قدراتها وأهما أنها "دبابة طائرة" لا تتأثر بطلقات أسلحتهم - وكانت تلك المعلومة جديدة بالنسبة لي كما أنها صحيحة أيضا - والخاصية الأخرى قدرتها على البقاء في الجو لفترة طويلة تفتش وتنقب وتطلق نيران رشاشات ثقيلة وقنابل متنوعة.

وفي الواقع فإن طائرات الهيلوكبتر الروسية من طراز (مى - 24 ) كانت من أفضل أسلحتهم فاعلية في حرب أفغانستان , ولكنها فقدت جزء من هيبتها بعد أن تزايدت عدد قطع الرشاشات الثقيلة المضادة للطائرات في أيدي المجاهدين . وذلك عن طريق الغنائم أو المساعدات الخارجية التي تزايدت بعد تدويل الأزمة بالتدخل الأمريكي .
وقد هبطت تلك الهيبة إلى أدنى مستوياتها بعد إدخال صاروخ "ستنجر" الأمريكي المضاد للطائرات إلى ساحة المعركة في أواخر عام 1986.
ومع هذا ظلت تلك الطائرات محتفظة بتفوقها في المناطق المنبسطة خاصة في شمال أفغانستان وأجزاء من الجنوب خاصة الجنوب الغربي الصحراوي.
وهبوط فاعلية الطيران كان - في ظني - جزء من هبوط فاعلية القوات الشيوعية بشكل عام - سواء الروسية أو الأفغانية - والفجوة النسبية الواسعة بينهم وبين المجاهدين في المجال المعنوي , ولصالح المجاهدين.
لقد أفرط الشيوعيون - روسا كانوا أو أفغانا - في الإعتماد على سلاح الجو لتعويض عجزهم على الأرض وهبوط معنويات جنود المشاة لديهم . ومع مرور الوقت كان ذلك الإعتماد يتزايد ولا يتناقص حتى خرجت بنتيجة شاركني فيها الكثير من المجاهدين , بأن الضربات الجوية كلما تكاثرت في العدد وزادت في العنف كلما كان ذلك دليلا على تدني معنويات الخصم , أو قرب انهياره . وبالفعل فإن الغارات المكثفة والعنيفة , كما كانت مقدمة لهجوم واسع أحيانا فقد كانت إشارة إلى قرب انسحاب أو استسلام وشيك للقوات الشيوعية.
وبعد إتمام الإنسحاب السوفييتي من أفغانستان في 15 فبراير 1989 أضاف الشيوعيون إلى سلاح الجو طائرات جديدة أبرزها الميج 29 مع تعزيز أعداد الطائرات السوخوي 25 وهي أيضا من أفضل القطع التي أثبتت فعالية في أفغانستان . وقد تضاعفت الأنواع الجديدة من القنابل التي تلقى من الجو , وأبرزها القنابل العنقودية , والقنابل الموجهة ( الذكية ) وقنابل ضد المغارات , والأبرز من هذا كله سلاح الصواريخ التي كان نجمها بلا منازع "صاروخ سكود بي" الذي استهلك منه عدة آلاف على مدى الثلاث سنوات الأخيرة من الحرب - منذ الإنسحاب السوفيتي وحتى سقوط النظام الشيوعي في كابل.
إذن فقد تعزز سلاح الجو كثيرا كما ونوعا , ودخل سلاح الصواريخ بغزارة لم يسبق لها مثيل خاصة في أمثال تلك الحروب . وأظن أن تلك الإجراءات لم تفد كثيرا على المستوى العسكري مع كونها قفزت بالتكلفة الإجمالية للحرب , وخاصة التكلفة السنوية لفترة السنوات الثلاث الأخيرة . فقد قدرت مصادر باكستانية ثمن صاروخ "سكود بي" بمبلغ مليون دولار . وتفيد شواهد عديدة أن دول الخليج (العربي) قد تكفلت بتمول نفقات الحرب على الجانب الشيوعي ودفعت لموسكو تكلفة صفقات السلاح في السنوات الثلاث .
ورغم المجهود الجوي الكاسح - بالطائرات ثم بالصواريخ - انتهت الحرب بهزيمة شاملة للشيوعيين.
وعلى هذا فلا يمكن الزعم بأن لسلاح الطيران قيمة حاسمة في معارك العصابات في كافة مراحلها وقد ثبت ذلك في أفغانستان . كما أن السيادة الجوية ليست حاسمة كذلك حتى في المعارك التقليدية وقد ثبت ذلك في حرب (العراق / إيران ). فقد استطاعت إيران الصمود طوال السنوات الثمانية التي استغرقتها الحرب بدون سلاح جوي تقريبا ومع هذا كله لا يمكن المجادلة في أهمية الدور الذي يقوم به سلاح الطيران في أي حرب تقليدية كانت أو غير تقليدية . وعلى المجاهدين أن يعتبروه عدوا رئيسيا وخطيرا ويبذلوا غاية العناية في التخطيط لمواجهة تأثيراته السيئة معنويا - أولا - و ماديا - ثانيا - .
والهيلوكبتر بلا شك هي العدو الأول لرجال العصابات وماديا فإن الصاروخ المضاد للطائرات والذي يطلق من الكتف هو أفضل علاج ضدها ظهر حتى الآن . ولكون أن هذا العلاج صعب جدا توفيره في معظم الحالات فسوف تظل المواجهة الأساسية للخطر القادم من الجو هو القدرة المعنوية للمجاهدين والإجراءات الوقائية السلبية ضد الطيران , مع محاولة ضرب هذه الطائرات في حالة جثومها على الأرض سواء في المطارات والقواعد الجوية أو قرب خطوط القتال أثناء العمليات وقد حدث ذلك في أفغانستان.
وقد يتصور البعض متأثرا بالدعاية التجارية والسياسية الأمريكية بأن صاروخ "ستنجر" كان هو السلاح الحاسم الذي مكن المجاهدين من النصر , وهذا كذب فاضح روجته آلة الدعاية والأكاذيب الأمريكية وقد ساعدهم المجاهدين على ذلك من حيث لا يدرون بإذاعة أرقام مبالغ فيها كثيرا عن إصابات لحقت بطائرات العدو بواسطة تلك الصواريخ.
والواقع أن ما قامت به أمريكا بالنسبة لصواريخ "ستنجر" استهدف غرضين رئيسيين الأول:

-سرقة النصر الذي تحقق على أيدي المسلمين والإستحواذ على نتائجه المادية والمعنوية وحرمان المجاهدين من كل فضل , ثم إدانتهم وتدمير قضيتهم بعد ذلك - وهو ما حدث فعلا -.

الثاني:

-ترويج السلاح الأمريكي عبر حملة دعاية واستغلال قضية كانت في قمة الإهتمام العالمي شعبيا ورسميا لأكثر من عشر سنوات . وغني عن الذكر أن تجارة السلاح تأتي على قمة الموارد بالنسبة للخزينة الأمريكية , بعد تجارة المخدرات الدولية وقبل تجارة النفط.

إن أي سلاح مهما كان حديثا وفعالا لا يمكن له أن يحل محل المعنويات المنهارة والعزائم الخائرة.

إن التدريب والسلاح الحديث والإداريات الجيدة من طعام وملبس وغيرها كلها عوامل تحسن الوضع المعنوي للجندي أو المجاهد ولكنها أشياء عابرة ومؤقتة والشيء الأساسي في أي حرب هو ذلك الإعتقاد والإيمان الذي يدفع الشخص كي يبذل كل ما يملك في ساحة القتال . هذا هو السلاح الحاسم الحقيقي في كل حرب منذ بداية الخليقة وحتى قيام الساعة.

في مركز مولوي "عبد الرحمن" في تلك الأيام الأولى من بدايات صيف 1979 , كنت وصديقي أحمد نمتلك نصف عدد البنادق الآلية في المعسكر . ومع الآخرين سبعة بنادق إنجليزية قديمة . أما "السيد أحمد" وهو رامي الهاون - السلاح الرئيسي للجماعة - فكان بلا سلاح شخصي.

إن قيمة القنابل التي ألقتها طائرات العدو على مركزنا في غارتها الأولى تفوق في قيمتها المادية جميع محتويات المركز من سلاح وذخائر وطعام وألبسة . وهذا وجه آخر للإستنزاف الذي واجه الروس . ولا بد من إدراك أن سلاح الجو مكلف جدا من الناحية المادية . ومن علامات نجاح المجاهدين هو إرغام سلاح الجو على العمل المستمر لاستنزاف عدوهم اقتصاديا ونفسيا . وفي ظني أن أكثر الطيارين الشيوعيين الذين شاركوا في الحرب الأفغانية قد تم تحويلهم - أو تحويل من بقي على الحياة منهم - إلى مستشفيات الأمراض العقلية . لقد استهلكت القيادة الشيوعية طياريها بجنون . وفي الواقع لم يكن هناك أكثر أمنا من الطيارين أثناء العمليات , فتحملوا مزيدا من العبء نيابة عن زملائهم الذين يلاقون الهلاك على الأرض.

أصبح مركزنا تحت ضغط مستمر من نيران العدو الأرضية , ودوريات الطيرات التي لا تكف عن الزمجرة فوقنا والقصف قريبا منا . فقرر مولوي "عبد الرحمن" ترك المركز وخرج في رحلة استطلاع استغرقت يومين انتخب فيها موقعا جديدا , ثم جاء إلى المعسكر وأرسل بعد ذلك بعض الرجال لحفر مغارة في الموقع الجديد.

وكانت تلك هي المغارة الأولى التي نشاهدها في الخط الأول في أفغانستان , وربما كان مولوي عبد الرحمن هو صاحب الفكرة الأولى في هذا المضمار على مستوى البلاد كلها . لقد كان الرجل يتمتع بموهبة تكتيكية مشهود بها , إلى جانب صلابته العقائدية التي أكدتها المواقف الصعبة.

لقد كانت المغارة بسيطة وساذجة التصميم ولكنها أدت دورا في حماية تلك العصبة الصغيرة كما أنها كانت مدخلا لبداية "فن الحفر" الذي تطور إلى أشكال ممتازة ومحكمة في مرات كثيرة . وقد كان للحفر دور بارز في معركتين هامتين على مستوى الحرب الأفغانية وهما معركة جاور ومعركة ا ى وهو ما سنذكره في الفصول التالية بإذن الله.

في معركة جاجي الشهيرة - وهي أول عمل عسكري كبير يقدم العرب به أنفسهم على الساحة الأفغانية - كانت عمليات الحفر التي قام بها أبو عبد الله ( أسامة بن لادن ) بغرض تدعيم مراكز المجاهدين الدفاعية , كانت عمليات الحفر هذه سببا رئيسيا من أسباب نشوب تلك المعركة . أما في خوست فكانت عمليات الحفر أحد الأسباب الهامة في نجاح عمليات العرب ضد مطار خوست في عام 1990 - 1991.

وقد لاحظنا أن عمليات الحفر سواء كانت لإنشاء مغارات أو خنادق هي من أشق الأعمال على نفس المجاهدين - أفغانا وعربا - وقليلا ما فعلوها بأنفسهم . فقد كانت من الأعمال المخصصة للأسرى أو الجنود الفارين من خدمة الجيش حيث يسخرهم المجاهدون لقضاء فترة تجنيد إجبارية في مراكزهم لخدمة المراكز أو لحفر الخنادق والمغارات.

ولم تلبث أن ظهرت فرق المحترفين لأعمال الحفريات وكانت أشبه بشركات مقاولات مصغرة تقوم بالحفر على نظام المقاولة بالقطعة . وأكثر تلك الفرق كانت من أبناء ولاية "وردك" الذين برعوا في ذلك الفن , إلى جانب تنظيم أعمالهم الإدارية وشئونهم العمالية حتى كونوا ما يشبه جيش الحفريات المكون من مجموعات معظمهم من الأقارب وجميع المجموعات متعارفة فيما بينها ومتعاونة أيضا.

وفي أيام فتح مدينة خوست , وقبل العمليات بأيام فلتت أعصاب نجيب الله رئيس النظام الشيوعي ووجه حديثا مباشرا إلى تلك المجموعات العاملة في حفريات المجاهدين في خوست وقال لهم : «إن غاراتنا الجوية على مواقع الأشرار في خوست لم تعد تجدي بسبب تلك المغارات القوية التى حفرها "أبناء الجرذان" من ولاية وردك . وإني أدعوا هؤلاء إلى ترك عملهم في خوست والإنضمام إلينا وسوف ندفع لهم ما يشاءون من الأموال . »

ولعلنا ندرك ماذا يعني تحييد قدرة سلاح جو متطور بواسطة عمل بدائي غير مكلف مثل حفر بعض مغارات في الجبل . وماذا يعني السيطرة على مرتفعات ومضائق هامة بواسطة عدد من الخنادق الجيدة . إن الطرف الأضعف عسكريا في حاجة دوما إلي مزيد من الحفريات وقد قال الحكيم الصيني "صن تسو" منذ ألفي عام " إذا كنت ضعيفا فاحفر عميقا في باطن الأرض , وعندما تصبح قويا اهجم من أعلى كأنك عقاب. "

ويمكننا القول بأن الحفريات تعيد جزءا من التوازن المفقود بين الضعيف والقوي . وكان في أفغانستان برهان جديد لتلك الحقيقة القديمة جدا.

مع الس---لاح الثق--يل

لقاءاتنا الأولى مع السلاح الثقيل لا تنسى , وهو ثقيل بالنسبة لإمكانات النقل والقوة العضلية لدي المجاهدين , وليس بالعرف العسكري التقليدي الذي لم تكن له قيمة كبيرة في أفغانستان . كانت أول أسلحة شاهدناها قيد الإستعمال هي الأسلحة المضادة للطائرات , وكان أولها في مركز مطيع الله في "زيروك" وقد شاهدناه مع حالة "تطفيش" لطائرات نفاثة متسكعة قرب المعسكر وكان مدفعا روسيا من الغنائم عياره 14.5مم ويشتهر بين المجاهدين باسم "زيكوياك" . وقام العسكريون الأفغان الفارين بتدريب إخوانهم المجاهدين على استخدامه.

وكذلك الحال بالنسبة لباقي الأسلحة التي سوف نذكرها هنا حيث أن باكستان لم تكن قد قررت التدخل بعد , أقصد لم تكن الأوامر الأمريكية قد صدرت إليها كي تفعل ذلك . أما في مركز "سرانا" فقد شاهدنا مدفعا مضادا للطائرات وهو رشاش بلجيكي الصنع عيار 12.67مم صنع خصيصا للمملكة الأفغانية حسب ما كتب عليه بالإنجليزية وسنة الصنع كانت 1941 . كانت قدرة المدفع عمليا هي إطلاق رصاصتين , أما الثالثة فإنها تحشر في الماسورة ويحتاج الأمر إلى عملية صناعية لاستخراجها وتستغرق العملية عشرة دقائق إذا كانت ميسرة .

ولقد شاهدنا "بادشاه" وهو المجاهد المسؤول عن الدفاع الجوي في سيرانا وهو يشتبك عدة مرات مع الطائرات تحت هذه الظروف . وبالطبع كنا حريصين جدا على أن لا نكون إلى جانبه في أمثال تلك الإشتباكات خاصة وأنه يمضي معظم وقت الإشتباك وهو يخرج الطلقة المحشورة في مدفعه , ومن جهة ثانية فإنه رفض رفضا قاطعا استخدام موقع جهزناه للمدفع وأحطناه بالصخور وغصون الأشجار للحماية والتمويه . ويبدو أنه اعتبر ذلك انتقاصا من شجاعته.

لقد استشهد "بادشاه" في معركة جاور . وهو الرجل الوحيد الذي رأيته في حياتي ولم يكن للخوف مكان في قلبه . لقد انهار النظام الشيوعي في كابل في ديسمبر 1979 ولم يكن في كل ولاية باكتيا الإستراتيجية سوى هذان المدفعان للعمل ضد سلاح الجو الشيوعي المكدس بالطائرات الحديثة . وربما كان ذلك ردا على أمريكا التي تزعم أن انتصار المسلمين في أفغانستان إنما كان بفضل صواريخ "ستنجر" التي دفعت عنهم الطيران السوفييتي وحيدت دوره.

كان السلاح الثالث الذي شاهدناه في حالة اشتباك هو "هاون السيد أحمد " وقد مر علينا اسم السيد أحمد رامي الهاون في مجموعة مولوي عبد الرحمن . وعلى يد الرجلين تلقيت بعض الدروس التي أفادتني طول مدة الحرب . كما أنها ظلت مستخدمة بين المجاهدين على نطاق واسع.

أول هذه الدروس تأخير وقت الإشتباك إلى قرب غروب الشمس حتى لا يعطي الطيران فرصة في التدخل ضده . الدرس الثاني كان اختيار الأهداف ... فقد كان "سيد أحمد" يتناقش مسبقا مع قائده "عبد الرحمن" في تحديد الأهداف التي سيوجه إليها نيرانه أثناء العملية.

الدرس الثالث كان اقتصاد الذخيرة , فقد كان لكل هدف طلقة واحدة ولم نسمع يوما أن "سيد أحمد" قد أخطأها.

بقي أن نعرف أن "سيد أحمد" كان مختصا في سلاح الهاون أثناء خدمته في الجيش الأفغاني وقبل أن يفر من وحدته ويلحق بالمجاهدين . وقد أخذ معه سلاحة "الهاون عيار82مم" ومازال يستخدمه أثناء التحاقه بالجهاد . والغريب أنه يقصف وحدته العسكرية المستحكمة في قرية "دارا" . ومن هذا نفهم لماذا لم يكن يخطئ الهدف أبدا فهو إلى جانب مهارته الفنية يحفظ تماما مواقع الأهداف ومسافاتها . ونفهم أيضا لماذا يناقش اختيار الأهداف مع قائده وكان يصر على عدم قصف خيام الجنود , وكان دائما يقول إنهم ليسوا شيوعيين وقد كنت بالأمس واحدا منهم . وكلهم ينتظر الفرصة للإلتحاق بإخوانه المجاهدين ولكن الضباط الشيوعيين يحرسونهم جيدا ويقتلون فورا كل من يشكون في نواياه من الجنود.

لقد ظل المجاهدون طوال مدة الحرب يفرقون بين الجندي الأفغاني المغلوب على أمره وبين الضابط الشيوعي الذي يأمره ويتحكم فيه بل ويستعبده.

وكل هؤلاء الجنود تقريبا كانوا من مزارعي الأرض في مناطق أفغانستان الناطقة بالفارسية . وكان ذلك ضمن مخطط إشعال الكراهية بين القوميات التي يتركب منها المجتمع الأفغاني , فالجنود والضباط في كل قومية يقاتلون في مناطق القوميات الأخرى . أما الضباط الشيوعيون "الحزبيون "فإنهم يقاتلون في كل مكان لأنهم يكرهون الجميع . لقد استشهد "السيد أحمد" بعد ذلك بعدة أشهر بواسطة قذيفة مدفعية من العدو هبطت لتأخذ أحمد فقط ولم تعقبها قنابل أخرى.

ما زلت أعتقد أن ذلك الشاب هو نموذج للمجاهد المثالي خلقا وعملا . وكونه من السادة - أي سلالة تنتهي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم - هو أمر لا أرفضه أو أقبله من أي شخص بسبب صعوبة الإثبات أو النفي في معظم الحالات . ولكن "سيد أحمد" كان سيدا نبيلا بكل معاني الكلمة . كان هادئا دمث الطباع محبوبا من الجميع متواضعا . يتصرف بثقة من تعود على السيادة والقيادة . هذا عن أخلاقه أما مهنيا فلم أر مثله في أفغانستان - من عرب أو عجم - شخصا يعشق سلاحه ويهتم به كما تهتم الأم بطفلها الرضيع . لقد حفر مغارة خاصة صغيرة لمدفعه وذخائره القليلة . أما بطانيته التي ينام عليها فكان يخصصها لتغطية ماسورة المدفع التي ينظفها يوميا من الأتربة , عدا التنظيف الحتمي بعد الإشتباك والرماية , وأثناء التحرك بالسلاح إذا أمطرت السماء فكان يتخلى عن ردائه ( البت و) كي يلف به الماسورة حتى لا تطالها الأمطار . أما هو فلن يصدأ إذا تبلل جسده بالمطر ولفحته الرياح.

أما براعته في استخدام الهاون فقد رأيت قلة من الأفغان وبعضا من العرب استخدموا هذا السلاح بدقة مدهشة كانت مؤثرة جدا في نتائج الإشتباكات مع العدو . وأذكر منهم "خان ولي" ذلك المجاهد الذي تحول إلى أسطورة ودخل اسمه في الأهازيج الشعبية وهو من جماعة جلال الدين حقاني , وقد بترت قدمه وما زال حيا يرزق . ومن العرب رأيب يحيى المصري وإبوهمام الصعيدي وكان لهما مآثر لا تحصى على الهاون وبعض قطع المدفعية الأخري . وكلاهما مازال حيا يرزق أيضا . وسوف يرد ذكرهما عند الحديث عن حملة فتح مدينة خوست.

وبالنسبة لدور المدفعية في حرب أفغانستان من طرف المجاهدين فكما ذكرنا تلك القيود التي فرضتها عليهم باكستان بهدف التحكم في وتيرة الحرب الأفغانية بما يتفق مع المصالح الأمريكية أساسا , وتنافس أمريكا مع السوفييت على الأرض الأفغانية لبسط مزيد من النفوذ على الإقليم كله الذي تعتبر أفغانستان بموقعها الإستراتيجي مفتاحه الأساسي.

كان قليل من المجاهدين يستطيعون استخدام قطع المدفعية بكفاءة . أما صيانة قطع المدفعية وحتى نظافتها فكانت مأساوية . ومن ناحية تكتيك استخدام المدفعية فكان شبه منعدم باستثناء التكتيكات الرديئة والفاسدة التي كان ينصح بها ضباط الإستخبارات الباكستانية عندما بدأ عهدهم المظلم في الجهاد على أرض أفغانستان.

إن حرب العصابات في مرحلتها الأولى , لا يحتاج فيها المجاهدون إلى استخدام الأسلحة الثقيلة , وبالذات قطع المدفعية والدبابات وذلك لصعوبة نقلها وصعوبة الحصول على الذخائر اللازمة أو أطقم التشغيل من الفنيين أو الدفاع عنها ضد هجمات العدو المتفوق والمجهز جيدا بالمعدات الحديثة . فأهم متطلبات المجاهدين في مرحلتهم الأولى هي حرية الحركة وسرعة المناورة , والضرب والإختفاء السريع وتفادي التطويق والإبادة من جانب قوات العدو.

وإذا كان من الممكن بسهولة نسبية الحصول على كميات كافية من الأسلحة بأنواعها من أيدي العدو , فإن الحصول على الذخائر لتلك الأسلحة أشد صعوبة , وطول مدة الحرب تبقى مشكلة الحصول على الذخائر الكافية

هي مشكلة عسيرة الحل . لهذا من الضروري للمجاهدين استخدام ذخائرهم بحكمة بالغة وتخطيط عملياتهم بعناية بحيث يحصلون من عدوهم على أكبر قدر من الذخائر.
وقد رأينا في أفغانستان كيف تحكمت أمريكا - بمساعدة عملائها من باكستانيين وعرب - أن تسيطر على أحزاب الجهاد وذلك بواسطة التحكم في كميات الأسلحة ونوعها ونسب توزيعها بين الأحزاب , وعلى مختلف المحافظات الأفغانية بما يضمن شراء ولاء التنظيمات والزعامات السياسية وحتى تمكنوا من السيطرة على كثير من الزعامات العسكرية في الجبهات "القادة الميدانيين" . وتحكموا إلى درجة كبيرة في مسار الحرب وتوجيه العمليات . وعلى الجانب السياسي صادروا مسار القضية الأفغانية سياسيا لمصالح أمريكا في المنطقة والعالم . وعن طريق قطع إمداد الذخائر أو تقليله أو زيادته أو إدخال أنواع بعينها وحجب أنواع أخرى تحكموا إلي درجة مفجعة في العمل العسكري.
ولا ننسى بالطبع تدخل ضباط الإستخبارات العسكرية في العمل العسكري الميداني وتحكمهم فيه وكانوا هم المشرفين على توزيع المعونات العسكرية والمالية على التنظيمات والقيادات الميدانية حتى صاروا في وقت من الأوقات ولفترة طويلة حتى نهاية الحرب هم الطرف الأقوى في قيادة العمل العسكري وتوجيهه . ومع ذلك لم تكن تلك السيطرة تامة بل تمكن المجاهدون المخلصون أحيانا من النفاذ خارج هذا الطوق الشيطاني وتحقيق بعض الضربات الخطيرة بنتائجها العسكرية والسياسية وذلك أسفر في نهاية المطاف إلى سقوط النظام الشيوعي على عكس الإرادة الأمريكية والباكستانية والعملاء العرب الآخرين.
وفي مرحلة حرب العصابات الثانية ثم مرحلتها النهائية الثالثة تبرز أهمية الأسلحة الثقيلة وتشتد الحاجة إليها وإلى ذخائرها وإلى تكتيكات مناسبة لاستخدامها في العمليات . ومع هذا فإن الهاون عيار 82مم أثبت في أفغانستان وفي مرحلة حرب العصابات الأوليةج أنه سلاح مؤثر ومرن وعظيم الفعالية , وكان "السيد أحمد" أول من أثبت لنا ذلك . ورغم أن العدو كان يهتلك عشرات من الأسلحة الثقيلة التي شاركت في الرد على "السيد أحمد" إلا أن الذعر الذي ركب ضباط العدو دفعهم إلى طلب مساندة الطيران في كل مرة . في البداية استخدموا الطائرات النفاثة ثم تحولوا إلى الهيلوكبتر . ودفع ذلك "السيد أحمد" وقائده "عبد الرحمن" إلي اختيار اللحظات القاتلة قبل الغروب لتوجيه ضرباتهم في الوقت الميت الذي لا يستطيع الطيران أن يكون فيه فعالا.
لقد كان الهاون المتوسط 82مم والهاونات الثقيلة 501مم والشهيرب- "الغرناي" شديد الفعالية لدي العدو وأوقع بها إصابات كثيرة بالمجاهدين خاصة في القصف العشوائي علي مراكزهم الثابتة أو التي تم اكتشافها , أو في حالات هجوم المجاهدين بأعداد كبيرة وغير مرتبة في تقدمها مما يسهل إصابتها بالهاونات . وكل هذه الحالات تعتبر أخطاء تكتيكية للمجاهدين ولكنها تكررت كثيرا حتى لحظات الحرب الأخيرة . فلم يطبق المجاهدون تكتيكات المشاة بشكل جيد . وسبب لهم ذلك خسائرا ثقيلة في الأرواح وأجهضت الكثير من مشاريع هجومهم على العدو.
ونشير هنا إلى الدور الكبير الذي تلعبه تضاريس الأرض الجبلية إلى جانب المجاهدين في حالتين , الأولى حالة اختيار مكان مناسب للرماية على العدو بواسطة قطع المدفعية عامة والهاونات خاصة , وحتى بدون حفريات أو تحصينات , وهي الأعمال التي ينفر منها المجاهدون كما ذكرنا . والحالة الثانية توفير حماية من القصف المعاكس من جانب العدو سواء بالمدفعية أو الهاونات خاصة أو الطيران . فقد تنفجر القنابل قريبا جدا من المجاهدين بما يعتبر إصابات مباشرة مؤكدة ولكن اختلاف منسوب الأرض ارتفاعا أو انخفاضا يذهب بتأثير الإنفجار والشظايا . ورغم أن الهاون الثقيل "الغرناي" أبعد مدى وأكبر عيارا إلا أنه أثبت أنه سلاح معوق ولم يكن مجديا بشكل عام لدى المجاهدين - وليس لدى الحكومة التي كانت تستخدمه بفعالية وكفاءة - والسبب أنه سلاح ثقيل تصعب المناورة به . كما أن قذائفه قليلة لدي المجاهدين سواء من الغنائم أو من الإمدادات "المبرمجة" التي تأتي بها الإستخبارات الباكستانية . وظل الهاون 82مم الوسط نجما بين أيدي المجاهدين حتى نهاية الحرب . وهذا السبب الذي دفع أمريكا إلى إرسال كميات كبيرة من ذخائر هذا المدفع إلى المجاهدين كان من بينها الكثير من القذائف المفخخة والتي أودت بحياة العشرات من خيرة المجاهدين العرب والأفغان وهو ما سيأتي ذكره في موضع آخر.
وخلاصة القول أن هذا المدفع هو سلاح فعال في حرب الجبال وفي جميع مراحلها سواء على جانب المجاهدين أو إلى جانب جيوش الكفر والإلحاد.

تمكن المجاهدون في أواخر مرحلتهم الأولى من حرب العصابات من الحصول على قطع مدفعية ثقيلة , وبعض الدبابات وأتاح لهم ذلك - مستفيدين من طبيعة الأرض الجبلية الوعرة وسيطرتهم عليها بإحكام في بعض المناطق خاصة في باكتيا - من توجيه ضربات مدفعية في العمق إلي المدن . وأدى ذلك إلي نتائج بعضها إيجابي وبعضها سلبي.

فقد اهتزت هيبة الحكومة المبنية على قدرتها على الدفاع عن السكان وادعاناتها بالقضاء على الأشرار - المجاهدين - وأجبرتها على القيام بحملات عسكرية لتدمير تلك المدافع والمجموعات العاملة عليه, وكانت تلك الحملات باهظة التكاليف تافهة النتائج , وينتج عنها غالبا وقوع الكثير من الأسرى والغنائم وتسليح المجاهدين بالمزيد من المعدات الثقيلة.

أما نتائجها السلبية فكانت عدم دقة الرمايات والتي تصيب غالبا بيوت المدنيين . ونتج عن ذلك مشاعر معادية للمجاهدين , وتزايد تيار الهجرة وكلا العاملين أضعف العمل الجهادي داخل المدن وكان ذلك من أبرز سلبيات العمل الجهادي في أفغانستان إذ كانت الحكومة على المدن - خاصة الرئيسية منها - سيطرة شبه كاملة , وكانت العمليات الداخلية فيها قليلة جدا أو نادرة وتنتهي دوما بخسائر فادحة للمجاهدين القائمين عليها سواء بالإعتقال أو القتل.

ودفع ذلك المجاهدين إلى الإعتماد أكثر وأكثر على القصف البعيد . حتى خلت المدن الهامة من السكان إلا من المتعاونين تماما مع العدو , أن المستفيدين ماديا من الوضع القائم أو عديمي الحيلة الذين لا يستطيعون سبيلا وتوفر لهم الإقامة في المدن المأوى والطعام اللذان تساعد الحكومة في توفرها لضمان ولاء السكان . لذلك كانت شبكات التجسس الحكومية في تلك المدن رهيبة من حيث الكثافة والدقة . وقد صدرت الحكومة ما لا يحصى من الجواسيس إلى داخل المناطق التي يسيطر عليها المجاهدون . بل واخترقت معظم المجموعات العاملة عسكريا بواسطة هؤلاء الوافدين من المدن للتطوع فيها . بل حيدت آلافا من سكان المناطق الجبلية . أما في بيشاور حيث المنظمات والتكدس غير المنضبط لمكاتب المجاهدين ومئات الآلاف من المهاجرين من شتى أرجاء البلاد فكانت مرتعا خصبا ومجالا خطيرا امتدت إليه حرب الإستخبارات وأحرز فيه الشيوعيون - الروس والأفغان - انتصارات مخيفة.

وهذا أيضا موضع حديث لاحق بإذن الله.

15 طلقة في سبيل الله

لم تعد الحرب كما كانت في قديم الزمان يوم كان القتال رجلا لرجل , فالأسلحة الحديثة جعلت الناس يتقاتلون بدون أن يرى بعضهم بعضا في معظم الأحوال . و,إذا كنت مجاهدا في إحدى حروب العصابات فإن سوف تعاني كثيرا من ذلك الوضع . فأنت سوف تتعرض كثيرا للمهالك بدون أن تتاح لك الفرصة لمشاهدة وجه عدوك وان تتاح لك الفرصة كي تعامله بالمثل إلا عندما تتقدم بك الحرب إلى مراحلها التالية وتقع في حوزتك بعض الأسلحة الثقيلة ومع هذا فسوف تعاني حتى نهاية حربك المظفرة بإذن الله من ذلك الشعور بالعجز والإحباط الذي ينتابك من وقت لآخر من جراء قصف الطيران المفاجئ بغاراته العنيفة بدون أن تملك لها دفعا. أو قصفا مدفعيا أو صاروخيا لا تدري ماذا تفعل إزاءه سوى أن تتوارى في أية حفرة أو كومة من الصخور . وإذا لم تصب أو يصب أحد إخوانك فإنك لا تلبث أن تشعر بالفرح والأمل وبأنك سوف تنتصر رغم كل شيء . أما إذا أصيب أحد إخوانك أو قتل فسوف ينتابك شيء من الحزن والوهن يستمر معك فترة على قدر قوة ارتباطك بالمصاب وعلى قدر امتصاصك للصدمات وهي إمكانية تختلف من شخص إلى آخر .ولكن عند زوال الحالة فسوف يكون عسيرا عليك للغاية أن تتخلي عن تلك الحرب حتى تقتل كمثل زميلك أو تنتصر على عدوك . والأغلب أنك سوف تشهد ساعة الإنتصار لأن نسبة عدد الشهداء إلى إجمالي عدد المجاهدين طوال الحرب يعتبر نسبة قليلة على عكس ما يتصور البعض . ولو كان الشهداء في أمة الإسلام هم هؤلاء الذين يسقطون في ساحة القتال فقط لكان عدد الشهداء في هذه الأمة قليلا - كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

عليك إذن التحلي بالصبر فهو الصفة الأولى في المقاتل المنتصر والحرب صبر ساعة كما قال رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

في البداية , بأسلحتك البدائية ذات المدى القصير لا بد أن تبذل مجهودا كبيرا حتى يصبح العدو في مرمى نيرانك لتقتله . أما هو فيستطيع قتلك وهو على بعد عشرات بل مئات الكيلومترات . لقد تعرضت مع زميلي أحمد للقتل مرات عديدة قبل أن نطلق طلقاتنا الأولى والقليلة في سبيل الله . وكان علينا أن نصبر أكثر وأكثر على نيران العدو المضادة التي لا تتناسب مطلقا مع طلقاتنا لا من حيث العدد أو من حيث العيار , ولا من حيث المدة التي استغرقها الإطلاق . في رحلتنا الأولى تلك أطلق كل منا خمسة عشر طلقة فقط على وجه التقريب وفي عمليتين مختلفتين.

في العملية الأولى أطلقنا عشر طلقات فقط وعلي مدى نصف دقيقة فقط , ورد علينا العدو بالهاونات ثم بالمدفعية الثقيلة ثم بالهيلوكبتر ثم بالطائرات النفاثة وعلى مدى ثمان ساعات.!!

وفي المرة الثانية أطلق كل منا خمس طلقات ورد علينا العدو بكل ما يمتلك من أسلحة رشاشة خفيفة ومتوسطة ثم بالهاونات من العيارات المتوسطة والثقيلة وعلى مدى ثلاث ساعات فقط !! . وهذه ملاحظة أخرى ثابتة على طول مدة الحرب في الأغلبية العظمى من الحالات , وهي عدم التناسب بين الفعل - من جانب المجاهدين - ورد الفعل من جانب العدو . والسبب الأساسي في ذلك هو حالة الرعب التي تنتاب العدو - وهي حالة يصعب تفسيرها ماديا أو حتى باستخدام علم النفس - . وقد دار مؤخرا حديث بيني وبين أحد إخواننا العرب "المطاريد" من حولنا وكان الحديث حول ما جاء من نصرة الله للمسلمين في غزوة بدر حيث كلف الله الملائكة : »فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان« , وهذا هو تنكيل الملائكة بالكفار أثناء الغزوة . أما التنكيل الإلهي فجاء في قوله تعالى : »سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب« . إن إلقاء الرعب في قلوب الكافرين هو من عمل الله سبحانه وتعالى المباشر وليس من مهام الملائكة . ولقد رأينا في أفغانستان - ورأى قبلنا المجاهدون منذ بدر حتى الآن وسيرى المجاهدون القادمون بعدنا - ذلك التأثير الساحق والمدمر للرعب الذي يقذفه الله في قلوب الكافرين قبل وأثناء وبعد المعركة . ومهما قلت إصاباتهم أو كثرت .

إن النصرة الحقيقية للمسلمين على الكافرين تأتي بعاملين : 1- الصبر من جانب المجاهدين وهذا هو مهمتهم الأولى والتحدي الأكبر أمامهم . 2 - الرعب الذي يلقيه الله في قلوب الكافرين فيعصف بهم ويدمر بنيانهم.

وكلا العاملين مرتبط بالآخر طرديا فكلما زاد صبر المجاهدين تزايدت كمية الرعب التي تزلزل قلوب الكفارين . وكلما تزلزلت صفوف الكافرين زاد صبر المؤمنين.

والصبر شاق جدا على النفس , الصبر على المشقة والأخطار وطول النزال , وترقب ساعة النصر , وكثرة المصائب في الأموال والأنفس والثمرات.

وهذا كله لا شيء بجانب الصبر على النصر نفسه !! . وهذا ما رأيناه في أفغانستان , فمعظم الأبطال الذين صمدوا السنوات الطوال وكانوا أساطير في البطولة والثبات والصبر , عندما فتحت المدن والأمصار وأقبلت الدنيا طاروا إليها وركبوا إليها كل مركب ولو على أنهار من دماء إخوانهم , ولو بارتكاب المعاصي والمحرمات والكبائر , ولو بنكران العهود وممالأة الكفار , وهجران المسلمين والأنصار والإنقلاب عليهم . كما حدث بين العرب المجاهدين وقادة الأحزاب وأعوانهم عندما جحدوا إخوانهم العرب وتنكروا لهم وظاهروا عليهم اليهود وأهل الصليب.

هناك نوع ثالث من الصبر - أعتقد أن زمانه قد انتهى - وهو الصبر على المجاهدين الأفغان عند العمل معهم . لهذا الصبر أوجه كثيرة لكن ما يعنينا هذا هو الجانب القتالي للعمل . فرغما عن أية خطة ومهما كان القائد متمكنا من عمله فإن الجماعة من المجاهدين ما أن تتحرك نحو الهدف حتى يتحكم بها "العقل الجماعي" ورغم عدم معرفتي الدقيقة بمعنى هذا المصطلح ولكنني أحاول عن طريقه أن أتفادى مصطلحا آخر وهو "روح القطيع" لأنه قد يعطي دلالات غير مقصودة.

في العام الأول لم نشاهد جهاز لاسلكي واحد قيد الإستخدام رغم أن عددا منها كان من ضمن الغنائم . ولكن الوضع تحسن كثيرا بعد تدويل القضية وبالذات عندما تكثف التواجد العربي , وللعرب الفضل الأكبر في تزويد المجموعات القتالية من الأفغان بأعداد كبيرة من أجهزة اللاسلكي الصغيرة . وأدى ذلك بالطبع إلى تحسين درجة السيطرة على المجموعات بواسطة قيادتها وإن كانت درجة السيطرة ظلت أقل من المستوى المطلوب . أي أن "العقل الجماعي" ظل متواجدا رغم خفوت حدته.

كان لقاؤنا الأول مع "العقل الجماعي" غير سار بالمرة . فقد فوجئنا في عصر أحد الأيام بخروج جميع أفراد معسكرنا بدون سابق إنذار - وحتى بدون أن يخبروني وصديقي - وبتحركهم صوب قرية دارا . تعجبنا من

الأمر وخرجنا من شعبنا الصغير لنستطلع الأمر فوجدنا أعدادا كبيرة من المجاهدين لا ندري من أين أتوا وإلى أين يسيرون وجميعهم متوجه بالخطوة السريعة نحو قرية دارا . تعرف علينا أحد الشباب وكان يتكلم العربية بصعوبة وأشار بسبابته في اتجاه القرية وقال :؛جنك شروع« أي أن الحرب سوف تبدأ , توقفت وصديقي في ارتباك ماذا ينبغي أن نفعل إذا تحركنا معهم . كان تحركنا بلا أمر مع أناس لا نعرفهم نحو هدف لا ندري ما هو . وإن نحن بقينا في المعسكر كان منظرنا مخزيا فقد سار الجميع نحو "الجنك" وقعدنا نحن من الخوالف . قررنا المسير مع "العقل الجماعي" وما هي إلا بضع مئات من الخطوات صوب القرية وسط تجمع ذكرني بنفرة الحجيج في أيام التشريق وفجأة لعلع رشاش ثقيل يصب حممه بين صفوفنا بطلقات متفجرة , انفجرت اثنتان منها على مسافة ليست بعيدة عن قدمي اليمني , لم أدر تماما أين يوجد ذلك الرشاش ولكن ارتميت إلى الجانب الأيسر محتميا ببعض الصخور.
نظرت حولي فإذا الجميع قد اختفوا يحتمون بالصخور , جاء صديقنا الجديد وأشار إلينا أن نتبعه وصعد بنا تلا صغيرا ثم انحدر إلى مكان حصين بين صخور ضخمة وعنده نبع ماء . توالت انفجارات قذائف هاون العدو , ونحن نسأل صديقنا عما يجب أن نفعله وعما ينوي المجاهدون فعله ولكنه لم يجب بشيء يفيد . إستمر الحال كذلك حتى غروب الشمس وتوافد على موقعنا حوالي عشرين مجاهدا فصلينا المغرب جماعة ثم عدنا إلى مركزنا والجميع يتسامر ويضحك ونحن نتساءل في بلاهة : ماذا حدث ؟ ... ماذا حدث ؟ ... فرد علينا الزملاء ببساطة :؛جنك جنك.»
سألني صديقي : هل فهمت شيئا ؟ فأجبته بأنني مثل الأطرش في الزفة . واستمرت تلك المعاناة عدة سنوات . حتى قررنا أن نعمل بصورة شبه مستقلة . بل أن بعض العرب عملوا في مراحل لاحقة بصورة مستقلة تماما ولكن علي مستوى الإشتباكات المحدودة . ولهذا قصص أخرى...
في مركزنا الجديد كنا في موقع يهدد مدخل دارا من الشمال حيث الطريق القادمة إليها من عاصمة الولاية جارديز على مسافة خمسة عشر كيلومترا تقريبا . وكان موقعنا الجديد أكثر خطورة على الحامية العسكرية بالقرية لأنه يهدد طريقها الرئيسي للإمداد والحركة . وهذا ما بدأ به مولوي عبد الرحمن علي إثر تلقيه معلومات تفيد أن قافلة إمدادات عسكرية في طريقها من جارديز إلى دارا , وأن القافلة قد تحمل معها أموالا كرواتب لأفراد القوة وضباطها . وكان موعد تحرك القوة هو اليوم التالي عصرا أو صباح اليوم الذي يليه.
تحركت مجموعتنا بسرعة في صباح اليوم المحدد على أمل أن تكمن للقافلة القادمة عصرا . وصحبتنا مجموعة أخرى من المجاهدين كانوا على مسافة غير بعيدة فإنضموا معنا في نفس البرنامج . ركبنا سلسلة التلال المشرفة على الطريق والتي تبعد عنه حوالي مائتي متر , فوجئت بأن مولوي عبد الرحمن قد وضع مدفعا قصير السبطانة بشكل مبالغ فيه ويتحرك على عجلات من خشب صغيرة جدا وله ساتر من الحديد لحماية الرامي . كان مظهر المدفع غريبا وبدائيا . سألت عن وظيفته فقالوا أنه "ضد الدبابة" . لو أر في حياتي مثل ذلك المدفع لا قبل ذلك الوقت ولا بعده ومازال بالنسبة لي يمثل لغزا عسكريا يستعصي على الفهم.
لم تحضر القافلة واضطررنا لقضاء ليلة عل الصخور في البرد القارس . في الصباح اصطحبنا "مولوي محمد سرور" مترجمنا في المركز إلى مواضع جديدة وأبلغنا بأن الأوامر تقضي بعدم إطلاق النار إلا عند سماع طلقات مولوي عبد الرحمن الذي تقدم صوب الشارع العام للهجوم على القافلة من مكان قريب بينما نقوم نحن وآخرون بالإسناد ومنع عساكر الحكومة من تطويق الجماعة المتقدمة . في حوالي التاسعة مرت شاحنتان عسكريتان - أظن الآن أنهما كانا لجس النبض - وسمعنا طلقة ثم طلقة أخرى وتساءلنا هل هي طلقات القائد أم لا . ولما لم نجد إجابة أطلقنا على الشاحنتين وأطلق آخرون ولكنها استمرا في المسير حتى وصلا القرية وظل الموقف هادئا نصف ساعة في هدوء قاتل ونحن لا ندري ماذا بعد. على أية حال قضينا باقي النهار حتى غروب الشمس تحت نيران لا ترحم من جانب العدو شاركت فيها جميع صنوف الأسلحة , وكان لقاؤنا الأول مع الهيلوكبتر التي زنقتنا في حفرة عميقة تحجبها صخرة عالية وقد شك الطيار في الموضع وظل يحوم فوقه عدة دقائق بينما أنا وزميلي قد فقدنا النطق , أما مولوي سرور فقد وضع طرف عمامته البيضاء ليخفي بها نصف وجهه ويطالع بعينيه مسار الهيلوكبتر العنيدة . لم أتمالك نفسي من الضحك لأني تصورت أن طاقم الهيلوكبتر يحمل معه صورة مولوي سرور للبحث عنه بينما هو تحت الصخرة يضع قناعا على وجهه ليختفي عنهم . وعندما أخبرته عن سبب ضحكي انفجر الآخر ضاحكا بصفاء نفس عجيب.

وما أن ابتعدت الهيلوكبتر لتصب نيرانها على تل قريب , أطلقنا العنان لأرجلنا النفاثة وهبطنا إلى مجرى جدول بجانبه جرف عال اختبئنا تحته باقي النهار لنحتمي من نيران النفاثات التي حضرت الإحتفال ونيران مدفعيات العدو التي لم تهدأ إلا بعد أن غربت الشمس وكان أشق الأعمال علينا هو أداء الصلوات في ظل تلك الكربات والمحن , أما عن الطعام فقد نسيناه حتى وصلنا إلى المعسكر.
كان الجميع بخير وفرحنا بعودة مولوي عبد الرحمن الذي سرت إشاعة بيننا وقت الظهيرة بأنه قد حوصر . وكان الخبر غير صحيح كالعادة كما أن الطلقات التي سمعناها وقررنا على إثرها "دخول المعركة" لم يكن مصدرها مولوي عبد الرحمن , ولا يدري أحد مصدرها .
وقد قتل مجاهد من أحد المجموعات التي هرعت نحو مكان القصف كي تقدم المساعدة . أما المجموعة الأخرى التي تحركت معنا فقد أصيب أحدهم بجروح سطحية وإن كان ثوبه قد تغطى بالدم , ولكنه كان بصحة جيدة ومرحا طول الوقت . وانتهت بذلك أول تجربة قتالية جهادية لنا كأعضاء عاملين , وكان ذلك الكمين هو الأول بالنسبة لنا.
لم يحقق الكمين الهدف منه وهو اعتراض قافلة العدو , ولكن نجاتنا كانت معجزة حقيقية بعد أطنان القنابل التي انهالت فوق رؤوسنا . وفي كل مرة كانت النجاة هي الإنجاز الأكبر بالنسبة لنا . حتى انتهت الحرب على هذا الحال رغم أن كمائن أخرى كثيرة كانت أكثر نجاحا من حيث إيذاء العدو.
تناقص عدد المجاهدين في المنطقة فجأة . بسبب اقتراب شهر رمضان وبسبب رغبة بعضهم في حضور موسم حصاد القمح . وهذه إحدى القواعد التي ظلت ثابتة طول حرب أفغانستان , فإنه يمكن تأجيل كل شيء عند المجاهدين حتى الحرب ولكن المواسم والمناسبات الدينية فلا يمكن تأجيلها ولا بد من قضائها مع الأهل . وكانت لتلك القاعدة آثار مأساوية لا تحصى , فقد كانت تلك المناسبات هي مواعيد ثابتة أيضا للقوات الشيوعية كي تسترد ما فقدته أو أن تتوسع في مناطقها . وغالبا ما كانت تنجح في مسعاها ... ولكن بقليل من الصبر وببعض الشهداء والجرحى كان المجاهدون يستعيدون ما فقدوه.
قرر مولوي عبد الرحمن أن يهاجم العدو قبل أن يهاجمه العدو . وكنت خطته بسيطة ولكنها آتت ثمارها . فقد أمر كل مجاهد أن يصعد منفردا على أحد التلال المشرفة على المواقع الحكومية في دارا ثم يرمي على الجنود خمسة طلقات - لا تزيد - وأن تبدأ العملية في وقت واحد قبل الغروب بنصف ساعة.
تم تنفيذ العملية بنجاح , ومعيار النجاح هنا هو ردع العدو عن الهجوم . وبالفعل لم يحاول أن يستغل فترة رمضان وعيد الفطر في توسيع نطاق دفاعاته أو التسلل إلي المنطقة وتلغيمها إلى آخر مشاريعه التخريبية . بالطبع شاركت مع صديقي المنياوي في تلك العملية ومعنا دليل من المجاهدين فكنا بذلك أكثر مواقع الرماية عددا . وقد تنبه العدو إلى ذلك بالطبع , فكانت نيران رشاشاته تزأر من فوق رؤوسنا تماما , وكنا نطلق نيراننا من خط الأفق فوق الجبل , وقد ساعد ذلك العدو كثيرا على التسديد الدقيق علينا , ولكن الله سلم , ولم نكد نفرغ من طلقاتنا المقررة ونتراجع قليلا إلى الخلف ونتبادل الإبتسامات حتى بدأت قذائف الهاون تتساقط فوق القمة , وكالعادة في مثل تلك المواقف المحرجة , تركنا لأرجلنا العنان كي تتصرف بما يلزم حتى وصلنا إلي صخرة ضخمة في مجرى سيل ضيق ارتمينا تحتها وتوافد إلينا آخرون من إخواننا . لقد عاد الجميع سالمين وتوارت الشمس في المغيب , وظهر لنا هلال شهر شعبان فوقف الجميع يدعون الله ويطلبون النصر , وبكى آخرون من التأثر . تمنيت وقتها ألا أغادر ذلك المكان وألا يتحرك الهلال من موضعه , فلم يسبق لي أن رأيته بذلك الجمال.
هكذا كانت طلقاتنا الأولى في سبيل الله , وكنت قد انتظرت سنوات طوال بل عمري كله كي أطلقها . وكنت أظنها سوف تطلق في فلسطين , فشاء الله أن تكون في أفغانستان , ولم نكن نتصور أن تؤثر كلا القضيتين على على الأخرى بهذا الشكل , وخاصة في تكوين الشباب المسلم في العالم العربي.
خمسة عشر طلقة فقط ؟! ... كنت وصديقي نتساءل بدهشة . بعد كل هذا العناء لم نطلق سوى هذا العدد من القليل من الطلقات . ولم يكتب لنا أن نشاهد ونشارك في نصر كبير على العدو . وفي مقابل كل طلقة نطلقها تلقينا من العدو عشرات القنابل وآلاف الرصاصات , وتخيلنا أننا نتلقى من الضربات أكثر مما نوجهه للعدو . لم نستسلم للإحباط , وما أكثر دوافعه التي قابلتنا في هذا الطريق منذ ذلك الوقت وحتى الآن , وتذكر صديقي حديثا شريفا يقول :؛ من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة « . ثم يغري نفسه قائلا : الحمد لله فقد قاتلت فواق ناقة.

أما الخمسة عشر طلقة فلم تكن قليلة كما تصورنا ... بل كان عددا مبالغا فيه بالنسبة لمعايير ذلك الوقت , حيث كان المجاهد يأخذ بندقيته الإنجليزية القديمة وعشر طلقات ويقضي على ذلك عدة أشهر في غارات وكمائن , وقد يستشهد أو يعود محملا بالغنائم . لقد كان ذلك الجيل الأول يدعو الله ويبكي قبل أن يضغط الزناد ليخرج طلقة على العدو لأنه يعلم أن عدد طلقاته قليلة جدا , وقد لا يجد فرصة لتعويض ذخائره ومواصلة الجهاد . ويوم الكمين الأول أطلقت وزميلي عشرين طلقة من إجمالي مائة وعشرين طلقة كانت معنا في أربعة مخازن . بينما لم يطلق أكثر المجاهدين ولا طلقة واحدة والذين أطلقوا لم يستخدموا أكثر من طلقتين , وما كان معي وزميلي من ذخائر كان أكثر مما يمتلكه معسكرنا كله . ويساوي استهلاك عدة أشهر من العمليات لهذه المجموعة النشطة ذات الشهرة والمرهوبة الجانب لدى قوات الحكومة.

وهذا جانب آخر من السلبيات العربية في أفغانستان , ألا وهو الإسراف في كل شيء تقريبا , الذخائر , الطعام , المهمات , النصائح والإرشادات بمناسبة وبدون مناسبة ... الخ.

هذا إلى جانب أوجه الإسراف التقليدية مثل الإسراف في الخلافات والإسراف في التشدد في الأحكام الفقهية والإسراف في الجدال والإسراف في تكوين الجماعات والإنشقاق عليها .

ضروب الإسراف تلك كانت طافية على السطح فطغت على الصورة العربية ولكن ذلك لا يعني أن الجميع قد غرقوا في نفس المستنقع.

ولا أنسى قصة ذلك الأفغاني الذي قابلناه على الحدود الباكستانية يبيع بقرته ويشتري بثمنها طلقات لبندقيته الإنجليزية ثم يتوجه إلى الجهاد - وقد وهبني وصديقي مائة روبية من ثمن البقرة وقد وجدنا حرجا شديدا في قبول الهدية النقدية لولا أن مرافقنا مولوي محمد سرور قال أن قبولها واجب في الأعراف المحلية فقبلناها .

إن البقرة في تلك المناطق الجبلية الفقيرة ثروة ومصدر رزق ولقمة عيش , واستبدالها بطلقات بندقية هو عمل غني بالدلالات . ويبرر الحرص الشديد من جانب المجاهدين في استخدام طلقاتهم . لقد تغيرت تلك الصورة المشرقة كما تغيرت كثير من الصور بعدما أوغلت القضية في التدويل وتعاظم الدور "الباكستاني" الذي كان رأس رمح أمريكي للعمل ضد الإسلام في أفغانستان.

لقد أصبحت الذخائر مجانية ومتوفرة بشكل جنوني - بالنسبة لما كان في مقدور المجاهدين أن يوفروه بجهودهم الذاتية وأموالهم في الأيام الأولى للجهاد - أي أيام الإخلاص والإيمان الصافي والممارسة الحقيقية الرائعة لمعاني الفداء والتوكل على الله والبذل للأرواح والأموال في سبيل الله ودفاعا عن دين الله.

انزوت كل تلك المعاني وذبلت وكانت تندثر تدريجيا ولم يبق منها في أيام الحرب الأخيرة إلا شذرات شاحبة وأفراد قلائل تخلفوا عن ركب الجشع والمتاجرة بالدماء بل المتاجرة بدين الله , والجري وراء الدنيا والمال والسلاح الذي فتحت خزائنه لهم أمريكا وحلفائها من المرتدين على اختلاف أصنافهم.

لقد كان الهدف الأول لتوزيع الذخائر والأسلحة في أفغانستان - وهي السياسة التي وضعتها أمريكا وطبقتها المخابرات الباكستانية - تهدف قبل كل شيء إلى تدمير الدافع العقائدي للقتال وتحويله إلى تنافس على الأموال والأسلحة والزعامات التي تقوم على كثرة ما يمتلكه ويتحكم فيه الزعيم من أموال وأسلحة تأتيه بأوامر أمريكية عبر قنوات باكستانية - وكثير من الأموال بل معظمها فيما بعد - كانت تأتي بأوامر أمريكية عبر قنوات سعودية بعدما استطاعت حكومة المملكة تكوين قنواتها وأدواتها الخاصة للعمل على الساحة الأفغانية . وكانا مثل كلبين مخلصين في التمرغ في الوحل أمام السيد الأمريكي كي يمنحهم مجرد كلمة رضا .وبعد أن كان الجهاد مجالا للبذل والعطاء أصبح مجالا للأخذ . فتوافد على ساحة الجهاد - التي لم يكن يجرء أحد على الإقتراب منها سوى الأفذاذ المخلصون - توافد عليها الصعاليك وقطاع الطرق والمنافقون من كل حدب وصوب وهدفهم "الجهاد" ولكن ليس في سبيل الله بل في سبيل الحصول على أسلحة وأموال وعتاد من يد ضباط الإستخبارات الباكستانية الذين تنامى نفوذهم في سنوات التدويل حتى فاق نفوذ رؤساء القبائل , بل أن رؤساء القبائل كانوا يتسابقون في التزلف إليهم للحصول على ما في أيديهم من مساعدات أمريكية . وتدريجيا تحولت الحرب إلى مصدر رزق لعشرات الألوف من الحثالة لم يتورع أكثرهم من اللعب على كافة الحبال فتارة ينتمي لهذا التنظيم الجهادي وتارة إلى التنظيم الآخر وثالثة ينضم إلى الحكومة . وفي كل الأحوال فإن له انتماء علنيا - رسميا - وعدة انتماءات سرية لتنظيمات أو حكومات . وكان القادة الجهاديين الكبار من زعماء الأحزاب - أو التنظيمات المسماة بالجهادية - هم أبرع وأسوأ من لعب تلك اللعبة القذرة وظل مع هذا يرفع راية الإسلام والجهاد ويتاجر

بها وما زالوا كذلك حتى مرحلة الفتنة الحالية التي يلعبونها لحساب نفس الجهات ويقبضون من نفس السادة الذين مولوهم في مرحلة "الجهاد" !! أي أمريكا وعملائها في باكستان والسعودية.
في أيام التدويل لاحظنا الإسراف الشديد في استخدام الذخائر وبدون أدنى ضرورة . بل ظهرت حالات سرقة الذخائر وبيعها في الأسواق . بل أن قيادات الأحزاب مارست ذلك بلا خجل . فباعت أسلحة وذخائرا قبل أن تدخل إلى أفغانستان أي فور استلامها من باكستان من مخازن الإستخبارات في إسلام آباد وبيشاور وكويتا - وغيرها من الأماكن الثانوية. -
بعض الأحزاب برر ذلك بحاجته للمال وأن العرب لا يتبرعون لهم بل يتبرعون للأحزاب الأصولية - سوف نتكلم فيما بعد عن تلك التقسيمات المأساوية المضحكة - وللحقيقة فإن قيادات الأحزاب الغنية - الأصولية - التي انهالت عليها التبرعات الشعبية من الخليج لم تكن بحاجة لبيع الأسلحة والذخائر في الأسواق , ولكن رجال الصفوف الخلفية في القيادة وحتى قادة الجبهات الصغار - معظمهم - كانوا دوما في حاجة لبيع مثل هذه الأشياء للإرتقاء إلى مستوى قادة الصف الأول الذين ارتقوا في معيشتهم إلي مستوى معيشة المسؤولين الباكستانيين , وامتلكوا الفيلات والسيارات الغالية وعشرات الحرس ومخصصات عالية تصرفها لهم باكستان كمخصصات إعاشة للقادة (!!) . وهي مخصصات تكفل "تليينهم" وسحبهم بعيدا عن معاناة شعوبهم وأحكام دينهم . وقد نجحوا في ذلك أيما نجاح . وتجدر الإشارة إلى تفشي حالات منطقية من الفساد في أوساط المخابرات الباكستانية العسكرية ( الآي إيس آي ) والذين كانوا مكلفين بمهام توزيع الأسلحة وكالعادة كان معظمهم مرتشون - والرشوة تقليد قومي في الطبقة البيروقراطية الباكستانية بجميع مستوياتهم العليا والسفلى - , وقد تقاسم هؤلاء نسبة من عوائد بيع المهمات العسكرية من أسلحة وذخائر مع قيادات الأحزاب والقيادات الميدانية داخل أفغانستان - حتى أن بعضهم أشرف على بناء مخازن عبارة عن مغارات ضخمة في أفغانستان لتخزين تلك المسروقات ثم طرحها للبيع في الأسواق القبلية وتقاسم الربح مع قيادات أفغانية "جهادية. "!!
وفي نهاية الحرب قام هؤلاء بخدعة أخرى إذ طلبوا من بعض القيادات إعادة تسليم ما عندهم من ذخائر وأسلحة كانوا قد استلموها سابقا وبقيت لديهم حتى انتهت الحرب . وانتهى ذلك بمساومات تجارية ودفع كمية من الأموال لهؤلاء الضباط العظام من المخابرات العسكرية الباكستانية.
ومع كل مخازيهم لم يستح هؤلاء - كما لم يستح سادتهم الأمريكان - من الإدعاء بأنهم أبطال فتح كابل وتحرير أفغانستان . وقد أصدر أحدهم (1) كتابين حول هذا المعنى , وقد صوروا مخازيهم في صورة بطولات , وصادروا بطولات القلة التي ظلت مخلصة في أفغانستان وما أجراه الله من فتوحات على أيديهم على أنها إنجازات هؤلاء المرتشين من خدم الصليبية الأمريكية.
كما مر علينا فإن مشكلة الذخائر أعقد من مشكلة السلاح . والحصول على كليهما ممكن وضروري أثناء المعارك ومن أيدي جنود العدو . هذه إحدى القواعد الجوهرية للحروب الجهادية - حروب العصابات - . وكما لاحظنا أيضا فإن الحصول على الذخائر يتم بوتيرة أقل من الحصول على السلاح . لذا لزم العمل بحكمة في استهلاكها . وهذا يأتي من دقة التخطيط ورفع مستوى تدريب الأفراد . ومن دقة التخطيط عدم مهاجمة أهداف عقيمة , أي تستهلك ذخائر بدون أمل في الحصول على غنائم ما لم تكن هذه الأهداف ذات قيمة حيوية في ذاتها مثل اغتيال قيادات العدو , أو تدمير منشآت ذات قيمة عالية اقتصاديا أن للمجهود العسكري مثل الجسور مثلا . وكثيرا ما يكون الحصول على الذخائر هو الهدف من العملية العسكرية.
تجمع كتب العصابات علي أهمية الأرض الصديقة - خارج الحدود - والتي توفر لرجال العصابات خلفية إدارية آمنة وإمدادا منتظما من السلاح والطعام . والذي لم أجده مذكورا في أي من تلك المراجع هو أن لتلك الأرض الصديقة سلبيات وربما آثارا مهلكة على حرب العصابات.
فحرب العصابات لا يمكنها أن تتخطى النظام السياسي القائم على الأرض الصديقة , أو تتجاهل مصالحه الحيوية , ولا أن تتأخر عن سداد الفواتير سواء حدث نصر أو تمت تسوية أو اندحرت الحركة . في كل الحالات هناك دين واجب السداد ولا يمكن الإفلات منه.
تلك قاعدة جوهرية ومنطقية , وكم كنا كمسلمين في غفلة وتعام بل وبلاهة عندما تخيلنا أنها غير موجودة في الحالة الأفغانية.
وقد دفع الأفغان ويدفعون حتى الآن الفواتير الواجب سدادها لباكستان ( خادم الصليبية الأمريكية في المنطقة ) كما يسددون الآن أيضا الفواتير للسيد الأمريكي في البيت الأبيض الذي يدير العالم عبر مؤسسته المسماة زورا

وبهتانا بالأمم المتحدة . ومؤسسات تلك "الأمم" هي الأقوى نفوذا في أفغانستان حاليا من كل المنظمات وجميع الشخصيات مهما كان مركزها .
فالحرب الأهلية في أفغانستان تدار أولا وأخيرا من البيت الأبيض مع سلسلة من القنوات الرسمية المشهورة والمهتمه من هيئة الأمم وحكومة باكستان وإيران والسعودية وحتى الحكومات الورقية في طاجيكستان وأوزباكستان .
ولكن بدون الأرض الصديقة من أين للمجاهدين بالذخائر . ؟
كما ذكرنا فإن الأرض الصدقة هي في الواقع أرض سيطرة وهيمنة علي الحركة - سواء حرب عصابات أو حرب عقائدية جهادية . ولا بد أن يكون هناك تطابقا في أهداف الأرض الصديقة وأهداف الحركة الجهادية . فلا يمكن أن ترتكز حركة جهادية على أرض صديقة غير جهادية - علمانية أو اشتراكية أو ديموقراطية ... الخ .
والذي حدث في أفغانستان هو أن الحركة الجهادية كانت هكذا بالإسم فقط - على مستويات القيادة - التي كانت في حقيقتها قيادات متطابقة تماما مع الوضع السياسي في الأرض الصديقة "باكستان" التي كانت وما زالت ذات حكومة تضع نفسها في خدمة "الصليب الأمريكي" وكانت نشأتها بفعل وتخطيط الصليب البريطاني الذي كان يحتل الهند - التي كانت مسلمة لعدة قرون قبل الإحتلال الصليبي البريطاني.
باختصار فإن قيادات الأحزاب المسماة جهادية والتي تمركزت في باكستان كانت - جميعها - بحكم تاريخها والأمر الواقع لها , قيادات عميلة تضع نفسها بالكلية في خدمة "الصليب الأمريكي" وتخدع المسلمين وتخدع شعبها بشعارات الإسلام التي كان من الواضح أنها أول من يخالفها في التطبيق . ولكن المسلمين تعاموا وكذبوا أعينهم وآذانهم وطمسوا عقولهم بأنفسهم وتمنوا الأوهام أن تكون حقائق حتى سطعت شمس الحقيقة من وراء ستائر الكذب الكثيفة ومنذ أن فتحت كابل لم يكن خافيا على ذي عينين أي قيادات كانت تقود الشعب المسلم المجاهد في أفغانستان , وإلى أي مدى أودت غفلتنا - نحن أنصار الجهاد - بمستقبل الجهاد في أفغانستان ومنطقة وسط آسيا بل والعالم . وأتحنا الفرصة لعدونا الصليبي كي يسخرنا لخدمة مصالحه بل وللإضرار بمصالحنا الإسلامية.
لقد ساعدنا بدمائنا وأموالنا الصليبية الأمريكية على تحقيق أهدافها الحيوية على مستوى العالم حتى صارت الحاكم الأوحد له . وألحقنا الضرر بمصالح المسلمين والإسلام وساعدنا أمريكا واليهود على إلحاق الضرر بسمعة الإسلام وسمعة الجهاد وإلحاق الصفات القبيحة بالمجاهدين والمسلمين عامة.
لا يعني ذلك قطعا بأن تلك هي كل الحصيلة الختامية لجهاد أربعة عشر عاما في أفغانستان , ومشاركة عربية طويلة في هذا الجهاد مع دماء ما لا يقل عن خمسمائة شاب عربي . هناك الجانب المضيء والمشرق لهذا الجهاد ولذلك مواضع أخرى.
وما يهمنا الآن هو ضرورة استقلال العمل الجهادي عن الأراضي المحيطة به - مهما بدت صديقة - مهما حاولت التزلف أو تقديم التسهيلات التي تشبه جرعات المواد المخدرة . ثم ما تلبث قيادات الحركة أن تتعود عليها ثم يصعب تخليها عنها ثم ترضخ للشروط وتتحول إلى تابع ذليل لهؤلاء "الأصدقاء."
الغنائم من أهم الأبواب الشرعية لتحقيق استقلال العمل الجهادي . وهو المدخل الشرعي والعملي لتفادي السقوط في فخ "الأصدقاء" من عملاء الصليب والمرتدين.
الأحكام الشرعية في الغنائم لم يتم تطبيقها في أفغانستان , هذا بشكل عام . ولكن حدث كثيرا أن تم توزيع الغنائم بشكل صحيح بين أفراد مجموعة ما . ولكن المجموعات المختلفة كان يحكمها قانون الإغتصاب والغلول . فلكل مجموعة الحرية في أخذ ما تستطيع بالكيفية المتاحة .فتحول مسرح الجهاد إلى ساحة لتصارع الذئاب البشرية.
لقد بدأت تلك المشكلة منذ اللحظة الأولى وتنامت حتي وصلت قمتها المأساوية بنهاية الفتح وسقوط النظام الشيوعي . من المعلوم أن القبلية نظام قوي عميق الجذور في أعماق تايخ الشعب الأفغاني . ولتلك القبلية قوانينها التي تأثرت كثيرا بالإسلام ولكن مازالت لها أعراف وقوانين مخالفة للتعاليم الإسلامية منها على سبيل المثال ما يختص بحقوق المرأة , ومنها ما يتعلق بالمعاملات مع الآخرين . فالمجتمع الأفغاني شديد الحرص على الأعراض عظيم الغيرة عليها , وهذا شيء أيجابي يتفق مع الإسلام ولكنه من جهة أخرى لا يعطي المرأة حقوقها التي كفلها الإسلام في الميراث والمهر والموافقة على اختيار الزوج سواء كانت بكرا أو ثيبا ... الخ.
أما معاملة الغير فإن العادات القبلية القديمة في قطع الطريق والسلب والنهب وعدوان القوي على الضعيف - كقبائل - والبعد عن روح العدل والإنصاف إذا كان الظلم والبغي ممكنا ... الخ .

لقد كانت النظرة العامة إلى الغنائم أنها نوع من النهب المباح شرعا . وهنا تحركت شهوة السلب والسطو في الروح القبلية وظهرت برداء إسلامي شرعي , فصارت أكثر خطورة.
لقد نتج عن ذلك مئات الصدامات وفشلت عشرات المعارك ولكن الأهم من ذلك كله هو ضياع هذا المورد الشرعي الهام لتمويل الجهاد .وسقوط الحركة الجهادية نفسها في يد الممولين من الأصدقاء : الصليبية الأمريكية والمرتدين من باكستانيين وعرب الحكومات.
بالتدريج بدأ نوع من التخصص الوظيفي , فالبعض يقاتل - إذا كان يرى ذلك ضروريا - وآخرون يخطفون الغنائم في الوقت المناسب . وحتى لا يوصم الصنف الأخير بالنفاق وهو مصطلح شرعي كان شائعا في ذلك الوقت لوصف هؤلاء من "الجنس الثالث" بين المجاهدين والكفار "الشيوعيين" وكان وصفا مستقذرا , كان الحل أن انضم هؤلاء "الخطافة" إلى منظمات جهادية التي كانت تكفي لاستيعاب أمثال هؤلاء وآخرين.
كان عدد المنظمات دائما في ازدياد واستيعابها لأي صنف وجنس من الناس ليس له ضوابط سوى التنافس الحزبي والشخصي والقبلي العرقي وجميع الخبائث والأنتان الأخرى.
كان هناك دوما في كل تنظيم أناس يقاتلون في سبيل الله وفيه أيضا عدد أكبر من الخطافة . وهناك من يمارس كلا العملين حسب الأحوال والظروف وهذه الحالة التي أثارت دهشتنا أكثر من سابقتيها.
وفي الجبهة تجد كل تنظيم يتهم التنظيم الأخر بأنه ترك الجهاد وتخصص في "الخطف" أي الغلول . وهذا غير صحيح لأن الصفوف كانت دوما مختلطة كما ذكرنا والأصناف الثلاثة كانت متواجدة دائما في كل تنظيم , مع اختلاف نسبة التركيب من منطقة إلى أخرى . فقد يغلب الصلاح على مجموعات تنظيم معين في منطقة محددة , وقد لا يكون الأمر كذلك في منطقة أخرى ربما كانت قريبة من الأولى.
أول ما لمسنا مشكلة الغنائم كان من خلال موقف فكاهي بين رجلين تخطى كل منهما الستين , وهما صديقا عمر طويل , ولكنهما اختلفا على غنيمة كانت صندوق ذخائر صغير . عندما لاقيناهما في قرية جبلية عاد مجاهدوها من معركة مع قوات الحكومة , فقدوا فيها ثلاث شهداء منهم رئيس القرية الذي كان يقود المجموعة , وأحد الشهداء الثلاثة كان حطم ضابط شيوعي رأسه بحجر عندما عثر عليه جريحا.
كانت القرية تلملم أحزانها , ولكن الصديقان العجوزان ظلا يبحثان مشكلة صندوق الذخيرة . بعد أن رحبا بنا قصا علينا قصة الخلاف وهي أنهما في أثناء المعركة الأخيرة شاهد الصديقان صندوق الذخيرة الحديدي ساقطا قرب شاحنة مشتعلة وكان هناك ضابط يرمي نيرانا شديدة من رشاش يحمله . واتفق الصديقان على خطة , الأول يناوش الضابط بالنيران والثاني يتسلل ويخطف الصندوق . وبالفعل نفذ الصديقان الخطة بنجاح كامل . ولكنهما ولعدة أيام لم يستطيعا الإتفاق على ملكية الصندوق . فالذي تسلل وخطف الصندوق ادعى ملكيته لأنه هو الذي خاطر بحياته وأحضر الصندوق , أما صديقه فأراد التقسيم مناصفة لأنه يرى أن تغطيته لصديقه كانت أساسية في الحصول علي الصندوق ولولاها لما استطاع أن يتقدم , ولو حاول التقدم بدون تغطية لكان الآن في عداد الشهداء.
الطريف أنهما كانا يتقابلان بعد صلاة الفجر كل يوم - كعادتهما من عشرات السنين - ولا يفترقان إلا بعد صلاة العشاء والذهاب إلى النوم . وطوال الوقت يبحثان نفس الموضوع - وبدون أدنى بادرة غضب أو ملل أو حدة - وكلما أتيحت لهما فرصة توسيع المناقشة واشتراك آخرين فإنهما يرحبان بذلك ويبدأ كل منهما في سرد حجته ولم يحدث أبدا أنهما قبلا أي حكم . فدائما أحدهما يقبل والآخر يرفض . حتى تركناهما على هذا الحال . ولا أدري الآن وبعد مرور خمسة عشر عام على ذلك الحادث هل اتفقا أم لا . والأرجح عندي أنهما ما زالا يديران نفس النقاش - هذا إذا ما كانا من الأحياء.
ولما كانت رحلتنا وسط مجموعات تنتمي إلى زعامة مولوي يونس خالص وحزبه ( حزب إسلامي ) , فقد استمعنا إلى شكاوى واتهامات للمجموعات المجاورة لهما وهي مجموعات تنتمي لحزب إسلامي ( حكمتيار ) وحزب محاز مللي للسيد أحمد جيلاني شيخ الطريقة الجيلانية في أفغانستان , وكانت المشكلة هي سرقة الغنائم بدون الإشتراك الفعلي في المعارك.
وقد ظننا خطأ بأن تلك المنظمات متخصصة في الغلول , ولم يكن ذلك صحيحا كما ذكرنا آنفا.
وكما ذكرت لقاءنا الأول مع مصيبة الغلول فمن المفيد أن أذكر اللقاء الأخير معه , وكان ذلك عندما استسلمت مدينة جارديز في أبريل 1992.

عندما شاع خبر مفاوضات التسليم بين حامية المدينة والمجاهدين بدأت قوافل من الشاحنات والتراكتورات والبيكابات وكل وسائل النقل الممكنة تتوافد علي الطرقات المؤدية إلى المدينة ورابطت على مسافة أمان مناسبة , واستمر ذلك أياما متوالية رغم الأمطار والسيول وبعض قذائف المدفعية والألغام التي أودت بحياة البعض ودمرت مركباتهم . إلا أن ذلك لم يفل في عضد "قوافل الغلول" كما أطلقنا عليها وقتها . وجميع تلك المركبات قدمت عبر الحدود الباكستانية , ويقودها إما مهاجرون أفغان - وهم الأكثرية - أو رجال من قبائل الباتان التي تعيش في المناطق الباكستانية.

ولما كانت مدينة خوست التي تم فتحها منذ عام تقريبا ( في 31 مارس 1991 ) وكانت أكبر تجربة غلول في أفغانستان منذ بداية الحرب حتى وقتها آنذاك , فقد صارت هناك خبرة "الغلول الجماعي" للمدن واستقرت قوانين لتنظيم العملية بأقل قدر من المشاكل والصدامات . وأهم قانون هو أن تصطحب كل جماعة غلول مجموعة من أعلام أي حزب من الأحزاب "الجهادية" مع صور زعيم ذلك الحزب . وفور دخول المدينة يبدأ سباق مع الزمن في رفع الأعلام ولصق الصور على المقار العسكرية والمخازن والمرافق والمباني الحكومية وحتى على الدكاكين المغلقة والدبابات وراجمات الصواريخ والمطارات . والجميل هو ذلك التعاون في الإحترام الجماعي لتلك الأعلام والملصقات - بدون أي تدقيق فيمن رفعها وجدية انتمائه للتنظيم الذي يرفع علمه ويلصق صورة زعيمه.

والطريف أن الأحزاب قد استفادت هي الأخرى من "فتوحات الغلول" تلك , فعند محاولة إنشاء سلطات جديدة داخل المدن "المحررة" كانت الصلاحيات الأكثر تفوض لذلك الحزب الذي ارتفعت له رايات أكبر ولصقت لزعيمه صور أكثر أثناء موجة الغلول أو "فتح الغلول" الذي تم للمدينة المنكوبة في جميع الأحوال.

القسم الأعظم من مكتسبات الغلول , بعد أن سقط النظام الشيوعي - وقبل ذلك أيضا - وجدت طريقها إلى خارج الحدود - باكستان غالبا - كي تباع هناك . وبذلك نزحت معظم ممتلكات الدولة الأفغانية وتحولت إلى باكستان كي تباع هناك "خردة" بالكيلو . عشرات من الدبابات الصالحة والمعطلة والمدمرة تم تقطيعها بأنابيب لحام الأكس - أسيتلين وتحولت إلى قطع صغيرة تم شحنها على السيارات أو حتى الجمال كي تباع بالكيلو في أسواق ضخمة للخردة علي الحدود الباكستانية . أيضا حطام العشرات من الطائرات وبعضها كان قابلا للإصلاح , قد بيعت بنفس الطريقة , وكذلك منصات إطلاق الصواريخ الثقيلة بأنواعها , رغم أن تلك المهمات العسكرية المتطورة بها أجزاء من معادن ثمينة مثل الذهب والفضة والبلاتين وبكميات تشكل ثروة ضخمة ولا يفهم ذلك غير الأذكياء من التجار الباكستانيين.

لا داعي للقول أن ذلك النشاط امتد حتى إلى الكابلات تحت الأرض وفوق الأبراج والأبراج نفسها بالطبع . وهكذا ساهم الغلول بدوره الفعال في إتمام الأجهاز على أفغانستان كي تصبح عن حق - قاعا صفصفا - وعلى الفور بدأت الحرب الأهلية بين الإخوة الأصوليين في كابل وكل فريق معه حلفاءه من الرفاق الماركسيين لإحراق الحطام المتبقي من حرب الأربع عشر عاما ضد الشيوعية.

ثم ذلك النزح والتخريب في أضخم حملة غلول في التاريخ الإسلامي القديم والحديث وهي الحملة التي رافقت سقوط النظام الشيوعي .

وقبل أن نترك الغلول ومشاهداتي في جارديز أذكر موقفين أحدهما أضحكني حتى البكاء - أقصد حتى طفرت الدموع من عيني - والثاني أصابني بالفزع وكان يؤدي إلى معركة مع أبطال الغلول.

في المشهد الأول وكنا في عصر اليوم الأول لفتح المدينة وانفعالاتي يصعب حصرها , إذ ثارت ذكريات تلك السنوات الطويلة وذكريات الطلقات الأولى في سبيل الله التي كانت في جبال جارديز , وهاهي لحظة الفتح بكل جلالها وقد لوثتها تلك الأدران التي أراها , بل أن أفغانستان تبدو كأنها تنحدر إلى هاوية لا قرار لها . وهو شعور أضاع بهجة النصر وغمرني بكآبة.

في عصر اليوم الأول كانت عمليات وضع اليد ورفع الأعلام ولصق الصور قد شارفت نهايتها , وأثناء تجوالنا في أطراف المدينة شاهدنا مولد كهرباء ضخم مركب على هيكل ذو عجلات كي يسهل نقله من مكان إلى آخر ولم نشاهد عليه علما ولا صورة فلم نصدق أعيننا واقتربنا منه حتى نتأكد من صحة تلك المعجزة , وسرعان ما اتضح لنا الأمر , فإن "المجاهد" الذي سيطر على تلك "الغنيمة" كان قد استنزف ما يمتلكه من أعلام وصور وخاف إذا هو ترك تلك الغنيمة أن يغتصبها آخر . وبسرعة تفتق ذهنه عن حل عبقري , فالتقط عصا من

الأرض وفك تكة سرواله وهي بيضاء اللون - من حسن الحظ - وهو نفس لون علم تنظيمه المفضل , وربط التكة بطرف العصا ورشقها على فتحة في أعلى المولد . وبهذا صار من ممتلكات التنظيم ذو العلم الأبيض.
كان محرجا بعض الشيء أن يعود المجاهد إلي زملائه وهو ممسك سرواله بيديه حتى لا يسقط على الأرض , ولكن ما هي إلا سويعات حتى عاد مع إخوانه المجاهدين وقد وضع تكة جديدة في سرواله وأحضر علما جديدا للمولد الكهربائي.
لقد أضحكني حتى البكاء ذلك المشهد النادر من الكوميديا المأساوية , أما المشهد الآخر فلم يكن لطيفا إلى تلك الدرجة.
قرب الغروب بدأت عملية تحطيم أقفال دكاكين المدينة في شارعها الرئيسي وهو العمل الذي حاول المجاهدون منعه ولكنهم فشلوا لأن كل شيء في المدينة كان قد تم نهبه فلماذا لا تنهب الدكاكين ؟ . بدأت كل عصابة تتقدم بوسيلتها للنقل وتقف أمام الدكان المعني ويقف عدد من المسلحين حول الدكان وإلي جانب السيارة لمنع أي اعتداء على حقوقهم ويتم كسر أقفال المحل ونقل الموجودات إلي السيارة ويمضون بها ويحضرون أخرى . ومن حسن الحظ أن معظم تجار المدينة كانوا قد أفرغوا محتويات محلاتهم . ولكن عددا قليلا منهم كانوا على ارتباط بقادة المجاهدين المحاصرين للمدينة ويعملون في نقل الأخبار إليهم بشكل منتظم . وفي صباح يوم التسليم وحتى قبل ذلك أخذ هؤلاء التجار المتعاونون رسائلا من القادة البارزين من المجاهدين تضمن سلامة ممتلكاتهم ومحلاتهم في المدينة , وتطلب من جميع المجاهدين احترام ذلك العهد . وكنا في الشارع الرئيسي للمدينة عندما حصل أحدهم - وهو صاحب صيدلية كبيرة - على رسالة ضمان من جانب قائد كبير كنا عل صلة وثيقة به . وما كاد القائد يتحرك إلى مكان آخر حتى بدأت عمليات "الغلول المسلح" وهجمت عصابة غلول على تلك الصيدلية بينما صاحبها واقف إلي جانبها ومعه الرسالة حتى يحمي أمواله.
ولكنهم جذبوه بعيدا مع التهديد وكسروا أبواب الصيدلية وحملوا صناديق الدواء والرجل يتوسل ويعرض عليهم الرسالة ثم يعرض عليهم "مكافأة مالية" على أن يتركوا الدواء ولكن ذلك كله لم ينفع , فتقدمنا إلى رئيس العصابة , وكنا ثلاثة أو أربعة من العرب ومعنا مترجم أفغاني , وأفهمنا الزعيم أننا كنا حاضرين عندما حصل ذلك الرجل صاحب الصيدلية على ضمان لممتلكاته من جانب ذلك القائد الكبير.
فما كان من رئيس العصابة إلا أن خطا إلى الخلف خطوة واسعة وأفرغ مخزن رشاشه من فوق رؤوسنا مباشرة حتى اضطررنا إلي الإنحناء قليلا , وهو يصيح بوحشية والزبد يتطاير من شدقيه : "الله أكبر ... جهاد في سبيل الله ... زنده باد إسلام " . ولثوان خطر لي أن أطلق عليه النار وأقتله . كان من السهل القضاء على عصابته تماما , فقد كان لنا في لحظتها داخل المدينة مجموعة كبيرة من العرب في أفضل أحوالهم التسليحية والمعنوية وكانوا يتجهزون منذ أشهر لخوض القتال لفتح المدينة.
ومن فضل الله أني تمالكت أعصابي في ذلك الموقف البائس وإلا لنشبت فتنة ضخمة ضاع فيها المئات داخل المدينة حيث الجميع متوجس من الجميع , وعمليات السطو تمر بتوازن حرج إذا اختل فقد يودي بالجميع.
وانسحبنا بسرعة تفاديا لأن استفزاز آخر وعدنا إلى المنازل التي نسكنها , وهي غنائم مؤقتة لنا , واحتسينا الشاي كي نبتلع حسرتنا ونتسلى بأشكال الطلقات من كل نوع و صنف وهي تغطي كامل سماء المدينة حتى الفجر . وهي ذخائر كانت في تقديري أكثر من كل ما أنفقه المجاهدون في معاركهم الحقيقية.
((((

العودة

انتهت زيارتنا للخط الأول . لم نحضر معارك كبيرة ولكننا قاتلنا في سبيل الله فواق ناقة , وذلك كان عزاؤنا.
شعرنا بالحزن ونحن نودع أولائك الأبطال في جبال جارديز , ونحن متأكدون أنهم خير منا , بل خير البشر في هذا الزمان . تحركنا نحو مركز "سيرانا" تمهيدا لرحيلنا إلى خارج أفغانستان , ومشاعر مدهشة تنتابنا . لقد اكتشفنا عالما بأسره لا يعلم عنه أحد غيرنا - ولا بد أن نبلغ الآخرين . إن الأفغان أروع مما تصورنا قبل مجيئنا . لقد أسرنا حب هؤلاء الرجال وتعلقت قلوبنا بهم.
والأروع من هذا كله هو اكتشاف عالم "الجهاد في سبيل الله" , ذلك العالم القدسي الذي كان حلما يؤرق نومنا ويشغل صحونا , وأتعبنا البحث عنه , حتى وجدناه أخيرا واقعا حيا يتحرك , ولم نكد نتخيل أن دخلنا هذا العالم

بكل نورانيته , كي نبلغ إخواننا من خلفنا . وتصورنا كم ستكون فرحة المسلمين وتسابقهم نحو ذلك الباب من أبواب الرحمة إلى ذروة سنام الإسلام.
وأخذت أفكر ... هل بدأنا الدخول في عالم العزة وترك تلك الذلة والمسكنة التي خلفها اليهود عن كواهلهم وألبسوها لنا - ليس بأيديهم - بل بأيدي المرتدين والمنافقين وأشباه المسلمين. ؟
هل أوشكت فكرتنا الطموحة أن ترى النور , هل تظهر تلك القوة الإسلامية من الشباب المجاهد الفدائي كي يقدم العون للمسلمين المظلومين أينما كانوا. ؟
هل اقتربت ساعة لقائنا مع اليهود, في معركة نرى أنها المعركة الأم , والغاية المثلى من قتالنا في سبيل الله.؟

عدنا إلى "سرانا" لنجد إشاعة غريبة تقول بأن "وزير الدفاع" من "عربستان" في طريقه إلى سرانا قادما من أورجون كي يبحث احتياجات المجاهدين حتي يرسلها إليهم . لم نصدق تلك الشائعة فلا الدول العربية يمكن أن تساعد ولا وزير دفاع يحضر بنفسه إلى هنا , خاصة في العالم العربي حيث مهام وزيد الدفاع معلومة جيدا فهو يجلس على كرسيه في وزارة الدفاع كي يحمي طاغوتا أكبر يجلس على كرسي أضخم في قصر الرئاسة . وأعداء النظام هم دائما داخل حدود الدولة وليس خارجها.
تبدلت الإشاعة ليصبح المرشح للقدوم هو وزير خارجية عربي . وأخيرا علمنا الخبر الأكيد بوصول موفد من طرف "مطيع الله" ليخبرنا أن صحفيا من جريدة الإتحاد وهو "سمير عبد المطلب" وبرفقته مصور قد زارا مركز المجاهدين في "زيروك" وتجولا في المنطقة, وكان في نيتهما الحضور إلى سرانا لولا ضيق الوقت والإرهاق الذي أصابهما وقد أحضرا معهما أعداد من الصحيفة قد نشر بها جميع الأخبار والتعليقات والصور التي أرسلناها. وكم أثار ذلك من موجة فرح وتفاؤل عارمة في جبال باكتيا وتحلق العشرات حول أعداد الصحيفة يشاهدون صور إخوانهم وهم يضحكون ويحاول بعضهم ترجمه الكلام المنشور . أما نحن فقد شعرنا بسعادة بالغة أن نجح ذلك الجزء الهام من عملنا , ووصل جزء من رسالتنا إلى المسلمين , وها هم المجاهدون أصبح صوتهم مسموعا واتصالهم مباشر مع العالم العربي , ومنطقة الخليج الغنية التي يمكن أن توفر لهم ما يحتاجون . وها هي قضية جهادية تطرق أسماع المسلمين بشكل مباشر وقوي وبلا واسطة من الإعلام الغربي.
لقد كسب المجاهدون صحيفة عربية قوية هي الإتحاد , وصوتا صحفيا جريئا ونشيطا هو صوت الصحفي "سمير عبد المطلب" الذي كان من أعمدة الجريدة ونجومها آنذاك.
لم نتصور آنذاك أن قضية أفغانستان سوف تصبح القضية الإعلامية الأولى في الإعلام الدولي - ومن ثم العربي - لأكثر من عشر سنوات - عقد الثمانينات كله - وذلك بعد دخولها كقضية في صراع تنافسي بين الكتلتين وأحد الموضوعات الرئيسية للحرب الباردة بينهما - أو بالأحرى واحدة من أهم الحروب بالوكالة , وهي الحروب التي شاعت على مسرح العلاقات الدولية فيما بعد الحرب العالمية الثانية وظهور السلاح النووي الذي جعل الحرب المباشرة بين الدول الكبرى أمرا صعبا للغاية بل قالوا أنه مستحيل ولا أظنه كذلك.
لقد كان المجهود الإعلامي المناصر للقضية الأفغانية مجهودا غير عادي , ولم تظفر به أية قضية إسلامية قبلا . ولكنه ظل إجمالا يخدم المصالح الأمريكية في القضية أكثر من خدمة العمل الإسلامي . وكانت مصطلحات الإسلام والجهاد من أكثر المصطلحات التي ابتذلها الإعلام المساند للقضية الأفغانية , كما ابتذلها السياسيون الأفغان ومنظماتهم "الجهادية" التي كانت - كمنظمات - أبعد ما يمكن عن هذه الصفة.
في طريق العودة وأمامنا عدة أيام من المسير الشاق كنا نشعر أننا أكثر نشاطا وانشراحا من يوم قدومنا . كنا نراها رحلة ناجحة حققنا فيها أهدافا هامة . ولكن ذلك الأفغاني الشاب نغص علينا صفاءنا بينما نحن نشتري بعض البسكويت اليابس من أول دكان صادفناه في عودتنا بعد أكثر من يوم من المسير , وكان مولوي "محمد سرور" يرافقنا في العودة كمترجم وحارس ودليل . وكنا قد تركنا سلاحنا وقسما من ملابسنا النافعة وأدوية صديقنا المنياوي للمجاهدين . ذلك الشاب الأفغاني عندما علم قصتنا أثناء تجاذبه أطراف الحديث مع مرافقنا , انبرى غاضبا مستنكرا قدومنا للجهاد في أفغانستان بينما تركنا فلسطين بلا جهاد . كان في كلامه منطق معقول وبه أيضا جهل بواقع الحال في فلسطين وما حولها من ممالك العرب حسب قول الأفغان . ولكن وجهة نظره تلك وجدت طريقها إلى ساحة الجدال العربية بين التيار "الإسلامي" المؤيد للجهاد في أفغانستان , والتيارات الأخرى المعارضة - ليس فقط لفكرة الجهاد بل لفكرة الإسلام نفسها - فالتيارات المعارضة - خاصة بعد تدويل القضية الأفغانية - ترى في حماس التيار الإسلامي واخراطه للعمل - وربما القتال في أفغانستان - دليلا جديدا علي

قصر نظر التيار الإسلامي - في أبسط الحالات - وعمالته للغرب ومعاداته للتقدمية - وهو الإتهام المحبب إلى نفوسهم والذي كانوا دوما يعملون على ترويجه بتشجيع الكتلتين الإشتراكية والرأسمالية على حد سواء . وعندما سقط الإتحاد السوفييتي في أفغانستان انضم العلمانيون والتقدميون والإشتراكيون العرب إلى أعدائهم في المعسكر الرأسمالي للقتال تحت رايته ضد الإسلام الذي أسموه أصولية وضد الجهاد الذي أسموه إرهابا وتطرفا.
لقد أثبتت ذلك الجذور الواحدة للرأسمالية والإشتراكية والمنبع الواحد للتيارات الناجمة عنهما والتي تتفق جميعها في كراهية الإسلام ومحاربة أتباعه.
وحتى وقتنا الراهن مازال يحلو للمرتدين العرب - وبعض الآخرين من دول "إسلامية" وغير إسلامية من موظفي الإعلام الصليبي يحلو لهم ترسيخ تهمة باطلة بالمتطوعين العرب في الجهاد الأفغاني والذي أطلقوا عليهم لفظ "الأفغان العرب" بأنهم عملاء للولايات المتحدة وأنها هي التي جلبتهم إلي أفغانستان ودربتهم وسلحتهم ثم أدخلتهم إلي الساحة الأفغانية ليقاتلوا السوفييت نيابة عنها . ولا يحتاج إثبات كذب هذه المقولة إلي مجهود كبير . وحتى لم يلكف أصحاب ذلك الإفتراء مجرد اختراع وتلفيق أي شواهد تثبت صحته.
وحاجتهم إلى تشويه تلك الظاهرة النادرة أي ظاهرة التجمع الجهادي العربي الضخم علي أرض أفغانستان , وما نتج عن ذلك من آثار بعيدة المدى في العالم العربي والإسلامي فيما بعد . وكانت حاجة الصليبية الدولية ماسة لتشويه تلك الحركة الجهادية - العالمية - غير القومية وغير الوطنية . ولا يتعارض ذلك مع الإعتراف أن القوى الصليبية واليهودية قد استفادت ببراعة من نتائج تحرك المجاهدين العرب - والأفغان أيضا - بل واستطاعت توجيه تلك الحركة في المسارات التي توافق خططها أو على الأقل لا تعرقلها - وقد نجحت في ذلك إلي درجة كبيرة - علي الأرض الأفغانية - ومع هذا فقد كان لها حوادث فشل خطيرة كما سنذكر لاحقا. لقد استفادت القوى الصليبية واليهودية من سيطرتها غير المباشرة على التحرك العربي والإسلامي الجهادي في القضية الأفغانية وخاصة على أرض القتال . ولكن على المدى البعيد وكما تثبت الأحداث حتى هذه اللحظة بأن المكاسب الإسلامية غير المنظورة كانت من الضخامة والخطورة بما لم يخطر ببال المخططين اليهود والصليبيين.
وحتى الآن ... وفي المناطق الأفغانية الصديقة القليلة التي مازالت تحترم العرب أو تهادنهم حتى حين , خاصة تلك التي خاضوا فيها معارك عنيفة إلى جانب إخوانهم المجاهدين , من وقت لآخر يسمع أحد من هؤلاء القلة من العرب "المنسيين" في أفغانستان من أحد هؤلاء الأفغان "الغيورين" على وطنهم عبارة كهذه أو قديبا منها : ؛ رفيق إنت إيش يسوي هون ... جهاد ختم ليش أنت ما يروخ بلاد ?« والسؤال أيضا صعب الإجابة لأن عبرات الحسرة تختنق داخل الصدر.
عند عودتنا استقبلنا الأصدقاء والمعارف بمثل الدهشة التي استقبل بها رواد الفضاء الذين عادوا من سطح القمر . أو كما استقبل المستكشفون القدماء بعد عودتهم من بحر الظلمات وجز " واق الواق" . الدهشة كانت القاسم المشترك لمشاعر ومواقف الذين علموا برحلتنا . بعضهم ثارت لديه مشاعر وحوافز حركة وآمال عريضة للعمل الإسلامي . وآخرون أكثر حرصا وذكاءا تشككوا في الأمر كله وأن وراءه مؤامرة ما يدبرها أعداء الإسلام - وللأسف فكان أكثر هذا التيار من "الدعاة" و "الحركيين" و "أبناء الحركة الإسلامية" , اختر ما شئت من مسميات براقة - كان التعاطف والتفاعل مع الرحلة وما ندعو إليه من مساعدة المجاهدين في مواجهة الشيوعية , هو الوجه الغالب لردود الفعل , وبدأ التجاوب يتنامى ببطء لكن باضطراد . خاصة وأن تلك النغمة كان مسموحا بها آنذاك في منطقة الخليج بل وكانت موضع ترحيب لكونها تتماشى مع مزاج السادة الأمريكان - وهذا هو الأهم - إضافة إلي كونها تضفي الصبغة الدينية على أوضاع الحكم ذات التوجه العملي المعاكس للإتجاه الإسلامي في حقيقة الأمر.
كان مسموحا بالكلام عن مساعدة المهاجرين والمجاهدين الأفغان . أما الكلام عن "الجهاد بالنفس" فكان يدور في همس وتكتم . وحتى عندما بلغ الحماس أوجه في أواسط الثمانينات كان الذهاب إلى أفغانستان للجهد محاطا ببعض المنغصات فقد تعرض بعض من أعرفهم ممن ذهبوا إلى أفغانستان إلى الطرد من أعمالهم الحكومية - خاصة ؤلئك الذين كانوا يعملون في وزارة الدفاع في الإمارات - وبعضهم تمكن من العودة إلى عمله بواسطات وبعضهم فقد عمله وترك البلاد.
كان هناك هامش لا بأس به من أجل الدعوة لمساندة الأفغان إنسانيا من منطلق إسلامي - وليس عسكريا من نفس المنطلق . لقد كانت جريدة الإتحاد منبرا هاما ساهمنا بمجهودنا المتواضع في كسبه إلى جانب تلك القضية . ثم توسعنا في الإتصال بالرموز الإسلامية في البلاد بدءا بمشايخ وزارة الأوقاف الذين تحمس بعضهم معنا -

وكيف لا - وهناك ضوء أخضر لا تخطئه الأعين الكليلة . وقد ساهم بعضهم بفعالية في الدعوة لمساندة الأفغان في جهادهم .واتصلنا بعدد محدود من أولئك "العلماء" الذين كانت لهم مكانة دينية وشعبية وأهمهم الشيخ أحمد ابن عبد العزيز المبارك رئيس دائرة القضاء الشرعي في أبو ظبي . كذلك الشيخ محمد المحمود في الشارقة وكان ذو نفوذ واحترام على المستويات الرسمية والشعبية.

ولما كانت تحرياتنا قد دلت على وجود أجهزة إذاعية قديمة لدى إمارة الشارقة بعد أن جددت الإمارة معدات إذاعتها فقد سافرنا إلي الشيخ المحمود بعد عودتنا وقصصنا عليه جانبا من رحلتنا واحتياجات المجاهدين إلى إذاعة توضح الحقائق للشعب الأفغاني وترفع معنوياته الإسلامية , وافق الرجل على أن يبذل مساعيه لدى المسؤولين للإفراج عن الأجهزة القديمة لصالح المجاهدين الأفغان . وقد فعل الرجل ما وعد به لكن مساعيه في هذا الإتجاه لم تكلل بالنجاح ولكنها على أية حال فتحت أبوابا واسعة من التعاطف والمساندة في إمارة الشارقة للمجاهدين الأفغان.

لقد عقدنا عشرات من الجلسات الخاصة مع المهتمين بالأمور العامة للمسلمين . وأكثرهم من خلصاء العاملين والحركيين في البلد . وكان لا بد من كتابة تقرير عن رحلتنا لنقل تلك الصورة إلى نطاق أوسع من المهتمين داخل وخارج الإمارات وقد توليت مهمة كتابة التقرير بصفتي صحفي الرحلة . وقمنا بتوزيعه على الجهات التي يمكننا الوصول إليها من فئة المهتمين بمثل تلك الشؤون . وكان الأهم من ذلك كله أننا أرسلنا ذلك التقرير مع عضو من أعضاء بعثتنا الأفغانية وهو صديقنا إسماعيل الذي أخذ التقرير وسلمه يدا بيد وناقش ما به مع المرشد العام للإخوان المسلمين في القاهرة.

وكانت تلك من أجرأ الخطوات التي اتخذناها منذ بدأت سلسلة طموحاتنا ومشاريعنا الإسلامية . وكنا نعقد آمالا واسعة على حركة الإخوان أن تتولى هي قيادة عمل إسلامي جهادي على أرض أفغانستان , وذلك بحكم تاريخها الحركي وقدراتها القيادية والتنظيمية وحتى العسكرية - على قدر تصورنا آنذاك.

وقد انتهى بنا ذلك التصور الساذج إلى كارثة في العلاقة مع الإخوان أنفسهم انتهت إلي عداء سافر ثم تحريضهم قيادات الأفغان المحسوبة على التيار الإخواني كي يزيحونا من الميدان , وحرضوا أحدهم - بل كبيرهم - آنذاك (سياف) على قتلي شخصيا عندما بدأت الكتابة المباشرة إلي جريدة الإتحاد من وجهة نظر لا تتوافق مع الرؤية والمصالح الإخوانية في أفغانستان وكان ذلك عام 1985 كما سيرد ذكره لاحقا.

ورغم الإستقبال المهذب من جانب الشيخ التلمساني - رحمه الله - لصديقنا إسماعيل إلا أن رد فعله كان متحفظا بل جافا , فلم يناقش معه التقرير واكتفى بجملة واحدة لم يزد عليها حيث قال :؛ جزاكم الله خيرا ... إن لدينا مصادرنا الخاصة التي تمدنا بتفاصيل ما يحدث في أفغانستان ... ومنذ سنوات طويلة. »

خرج إسماعيل مبهوتا بل مصدوما . وقالها لنا بصراحة أن أمله قد خاب تماما في الإخوان ... ولا أمل لديه فيهم .

لقد انتقل إلينا الشعور بالصدمة , وتوالت تلك الصدمات حتى انتهت بعداوة وقطيعة . وللحق فإن صديقنا المنياوي لم يفاجأ كثيرا فقد كانت آراؤه مستقاة من والده "الحاج حسني المنياوي" الذي سبق لنا ذكر ماضيه الإخواني والجهادي والذي كان يرى في الإخوان المعاصرين أنهم "نصابون" و "متاجرون بالإسلام. "

كان الرجل حاد الطبع مع الجميع لهذا لم أعر آرائه أهمية كبيرة في بداية الأمر . ولكن ذلك التقييم السلبي للإخوان المعاصرين وأنهم منحرفون عن مفهوم الإخوان كما وضعه المؤسس الأول للحركة الشيخ حسن البنا , كان ذلك رأي عدد من القدماء المجاهدين من "الصقور" خاصة مقاتلي فلسطين والقناة.

مسؤولي الإخوان في أبو ظبي ودبي أوضحوا الدور الذي اختاره الإخوان لأنفسهم إزاء قضية أفغانستان , وهو المساعدة في جمع الأموال والمعونات "الإنسانية" ... أما الدور العسكري فهو غير وارد . وقد أضاف أحدهم - على غير العادة - بأن دخول المجال العسكري سوف يعرضهم لمخاطر جسيمة في مصر والمنطقة العربية ويكفي من لحقهم مو جراء التوجهات العسكرية في الجماعة وما جره ذلك عليها من مصائب.

قرأت الآن التقرير الذي كتبته عن رحلتها الأولى إلى أفغانستان وفي ظني - الآن - أنه كان أهم الأعمال التي قمنا بها بعد عودتنا . والأخطر أنه سجل بصمات تلك المرحلة - وهذه من مآثر الكلمة المكتوبة أنها تصبح مثل الحفريات التي تحفظ بداخلها تاريخا مضى وتجعله حاضرا وماثلا للعيان لمن أراد أن يبحث ويفحص ويستنتج .

وهكذا أفعل الآن بعد حوالي أربعة عشر عاما من كتابته . ونظرا لخطورة محتواه - رغم بساطة العرض والأسلوب - إلا أن القضايا التي أثارها ظلت محور اهتمام وصراع طوال فترة اشتعال القضية الأفغانية منذ أن

بدأت جهادا في أبريل عام 1978 حتى تحولت إلى فتنة سوداء منتنة في أبريل 1992 . وقضايا أخرى احتواها التقرير مازالت موضع جدال وخلاف بعد اكتمال المرحلة الأفغانية وظهور نتائجها.
وفي مناسبات أخرى - غالبا بعد تطورات هامة في مسار القضية الأفغانية - كتبت عدة تقارير أخرى كنا نوزعها باليد على المهتمين والأصدقاء . وأكثرها كان يرسل إلي جماعة الإخوان المسلمين بناء على إصرار أحد إخواننا - وكانوا من قدماء الإخوان - الذين رأوا في ذلك إبراء للذمة وإقامة للحجة . وحتى نوضح لهم ما قد يكون قد خفي عليهم - وللحقيقة فإن بعض كبار الإخوان المقيمين في الإمارات أو الذي وفدوا إليها واجتمعنا بهم لمناقشة أوضاع أفغانستان وتقديم مقترحاتنا لإصلاح الإعوجاج في مسيرة الجهاد والأعمال المثلى التي ينبغي علينا - كأنصار عرب - أن نقوم بها كي نساهم في إنجاح ذلك الجهاد - قد اقتنع بعضهم معنا وتحمس وطالبنا آخرون بمزيد من تلك الكتابات لمناقشاتها داخل الجماعة . وهكذا رأت بعض تلك التقارير النور بناء على نصائح هؤلاء المخلصين.
ولما كانت كل هذه التقارير تقف موقفا غير ودي من "زعماء بيشاور" خاصة المنتمين لتيار الإخوان , فقد وجدت تلك التقارير طريقها إليهم مع تعيين مصدرها والتحريض ضده . وقد كلفني ذلك الكثير وما زال.
كانت وسائل النشر مفتوحة على الغارب بالنسبة لقضية أفغانستان وكنا أجد صدرا ربحا في صحيفه الإتحاد الذين قابلوا ما أكتبه عن أفغانستان بتقدير يشكرون عليه , وكانوا على علم بصلاتي المباشرة بالقيادات الأفغانية وبالجهاد الدائر في أفغانستان - وعلى هذا الأساس كان تقديرهم الواضح لما أكتبه . ومكثت أكتب لهم من آن إلي آخر منذ رحلتنا الأولى وحتى عام 1985 حتي عملت معهم كصحفي محترف ومديرا لمكتب الجريدة في إسلام آباد . وفي العام التالي تم إغلاق المكتب بعد أن تنامت العلاقات الودية بين أبو ظبي وموسكو .كان للتقارير الشعبية التي أكتبها لدائرة المهتمين - بما فيهم الإخوان - أحد ظواهر تلك الفترة . وكانت بصمة للجانب الذي يصعب الإعلان عنه في وسائل الإعلام الرسمية أو الأخرى الإسلامية التابعة في مجملها لحركة الإخوان أو للسيطرة الحكومية المكشوفة.
وبعد تحول "الجهاد المقدس" إلى "فتنة ملعونة" على أيدي القادة الأفغان وعلى رأسهم المنتمين إلى حركة الإخوان , أو الأصوليون كما خدعنا الإعلام الغربي وأطلق عليهم هذا المسمى العدائي , بعد هذا التحول "التاريخي" أو المأساوي . تحولت مع قلة من العرب المنسيين داخل أفغانستان إلى مجموعة من المطاريد أي الخارجين علي القانون والمطلوبين للعدالة الدولية وللنظام الدولي الجديد.
وكان لي بعض الكتابات التي لا يمكن - ليس فقط نشرها - بل وحتى عرضها إلا على دائرة قليلة من الأصدقاء المقربين , كان ذلك تطورا آخرا في إنتاجي "الأدبي" , أطلقت عليه أدب المطاريد . وهو يتناول القضايا العملية للحركة الجهادية , من القتال وحتي التمويل مرورا بالتنظيم والإعلام والعمل السياسي . وهي موضوعات ليست شعبية داخل الحركة الجهادية نفسها , بل متهمة في بعض الأحيان , ومكروهة في معظم الحالات , أما خارج الوسط الجهادي نفسه فهى موضوعات كفيلة باستجلاب حكم واحد بالإعدام - على الأقل - عن كل سطر يحتويه البحث.
وفي المرحلة الواقعة ما بين مرحلة التقارير الشعبية إلى مرحلة أدب المطاريد كانت هناك فترة أخرى بدأت عام 1987 حيث كتبت عدة تقارير عسكرية خاصة ببعض العمليات التي قام بها إخواننا من المجاهدين العرب - وعدد محدود جدا من تلك العمليات حضرته معهم بشكل هامشي جدا أو أساسي أن من بدايته إلى نهايته.
هذه التقارير بأنواعها - إلى جانب ما كتبته من تقارير صحفية للإتحاد وغيرها - تصلح أن تكون بصمة لا بأس بدقة وضوحها للوضع الأفغاني العام في تلك الحقبة الحساسة من التاريخ الإسلامي المعاصر - كما أنها تحمل بصمة تزيد وضوحا عددا من الجوانب الهامه للنشاط العربي الجهادي الذي رافق التجربة الأفغانية.
وكما ذكرت سابقا , بأنني على درجة من الطموح - من بقايا الطموحات العظيمة السابقة - تجعلني أتوقع بأن تكون تلك القصاصات وما تحويه من عناصر , وما أنوي أن أضيفه إلي ذلك كله من ثرثرة , أطمح إلى أن يكون في ذلك الركام شيء من الفائدة لأجيال لاحقة - هذا إذا لم تكن تنوي الإستمرار في ارتكاب نفس الأخطاء التي ارتكبها من سبقوهم - وأيضا إذا تغيرت تلك السمة التي تطبع التيار الإسلامي عامة والجهادي خاصة وهي سمة عدم القراءة وعدم الكتابة في المواضيع العملية للنشاط القتالي للمسلمين . إنها بلا شك نوع من الأمية السائدة في أوساطنا حاليا - وإن كانت قد بدأت تقشعر ببطء شديد . وإلي هؤلاء الذين في بطن الغيب الذين قد يهدرون

أوقاتهم بقراءة مثل هذه الثرثرات نناقش سويا في ثنايا هذا الكتاب عددا من تلك الكتابات "غير القانونية" بعرف عصرنا الحاضر.
ونبدأ بالتقرير الأول , وفي البداية نورد نصه الحرفي , الذي ينقل بإيجاز "صورة فوتوغرافية" عما شاهدناه وسمعناه أو قرأناه في ذلك الوقت حول موضوع البحث ثم نناقش بعد ذلك القضايا التي احتواها وكيف تطورت وأيضا السلبيات والأخطاء التي احتواها التقرير والأسباب التي أدت إلي ذلك.
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.
في هذا التقرير سنحاول بإذن الله أن نلخص الوضع القائم في أفغانستان وحقيقة القتال الدائر فوق أراضي هذه الدولة المسلمة وأطراف هذا القتال وأبعاده وقد اعتمدنا في بحثنا هذا على زيارتنا التي قمنا بها إلى مواقع القتال حيث وفقنا الله إلى لقاء المجاهدين والإشتراك معهم في القتال والتعرف على أحوالهم عن قرب في أحد أهم مناطق القتال الدائر هناك وهي ولاية باكتيا حيث قابلنا هناك كثيرا من الشخصيات القيادية ومجاهدين من مختلف الولايات الأفغانية ورجال الأحزاب الإسلامية المختلفة.
وإذا كانت زيارتنا ومقابلاتنا في مواقع الجهاد هي مصدرنا الرئيسي في هذا البحث فإن تقارير الصحف الأجنبية التي أرسلت بواسطة مندوبيها في كابول تمثل مصدرا آخرا حيث لا يتيسر عادة للمسلمين الدخوال إلى هذه العاصمة لتقصي الوضع هناك . اللهم بعض الرسائل التي يرسلها المجاهدون هناك للقيادة العامة في جلال آباد عند مولانا محمد يونس خالص (1) المصور الثالث والآخير هو ما ذكرته تقارير الصحف الفربية نفسها ونسبته إلى مصادر أجهزة المخابرات الغربية (2. (
بداية الصراع
بدأ التسلل الشيوعي في أفغانستان منذ حوالي خمسين عاما . وبدأ هينا متسللا حيث أن أهل هذه البلاد عرفوا منذ الفتح الإسلامي بشدة تمسكهم بالإسلام واعتزازهم به ودفاعهم عنه بالأموال والأنفس . وقد مارس الحكام الروس ضغوطا مختلفة على حكام أفغانستان لكي يغضوا الطرف عن هذا التسلل الجديد وقد نجحوا في ذلك بدرجات مختلفة . وسار المد الشيوعي في خط متعرج ولكنه صاعد إلى أعلى مستشر في مرافق الدولة الحساسة.
حتى كان عهد الملك ظاهر شاه الذي سهل للشيوعيين التسلل إلى جهاز الإعلام وجهاز التعليم ثم القوات المسلحة وفتح الإتحاد السوفييتي أبواب البعثات التعليمية على مصراعيها حتى أنه قدم في أحد السنوات عددا من